التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الحجر

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

(الجزء الرابع عشر)

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا إنـــك أنت السميع العليم ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بسورة الحجر

١ — سورة الحجر ، هى السورة الرابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فقد ذكر الزركشى والسيوطى أنها نزلت بعد سورة يوسف(١) . .

وعدد آياتها تسع وتسعون آية .

٢ — وسميت بسورة الحجر، لورود هذا اللفظ فيها دون أن يرد فى غيرها وأصحاب الحجر هم قوم صالح — عليه السلام — ، إذ كانوا ينزلون الحِجْر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو المكان المحجور ، أى الممنوع أن يسكنه أحد غيرهم لاختصاصهم به .

ويجوز أن يكون لفظ الحجر ، مأخوذ من الحجارة ، لأن قوم صالح - عليه السلام - كانوا ينحتون بيوتهم من أحجار الجبال وصخورها ، ويبنون بناء محكما جميلا .

قال - تعالى - حكاية عما قاله نبيهم صالح لهم - «وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين »(٢) ومساكنهم مازالت آثارها باقية ، وتعرف الآن بمدائن صالح ، وهى فى طريق القادم من المدينة المنورة إلى بلاد الشام أو العكس، وتقع ما بين خيبر وتبوك . . .

---

(١) راجع البرهان للإمام الزركشى ج ١ ص ١٩٣ والإتقان للإمام السيوطى ج ١ ص ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٤٩

وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ....

٣ - وسورة الحجر كلها مكية .

قال الشوكاني : وهي مكية بالاتفاق . وأخرج النحاس في ناسخه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحجر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله »[1] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه السورة أنها مكية ، دون أن يذكر في ذلك خلافا .

وقال الآلوسي : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير - رضي الله عنهم - أنها نزلت بمكة . وروى ذلك عن قتادة ومجاهد .

وفي مجمع البيان عن الحسن أنها مكية إلا قوله - تعالى - « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » وقوله - تعالى - « كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين »[2] ...

والحق أن السورة كلها مكية ، وسنبين عند تفسيرنا للآيات التي قيل بأنها مدنية ، أن هذا القول ليس له دليل يعتمد عليه .

٤ - (ا) وعندما نقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل، نراها في مطلعها تشير إلى سمو مكانة القرآن الكريم ، وإلى سوء عاقبة الكافرين الذين عموا وصموا عن دعوة الحق ...

قال - تعالى - : (الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين . ربما يود الذين

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ١٢٠

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٤ ص ٢ .

كفروا لو كانوا مسلمين. ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون. وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. ماتسبق من أمة أجلها ومايستأخرون ...

(ب) ثم تخبرنا بعد ذلك بأن الله ـ تعالى ـ قد تكفل بحفظ كتابه . وصيانته من أى تحريف أو تبديل ، وبأن المكذبين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يكذبونه عن عناد وجحود ، لاعن نقص فى الأدلة الدالة على صدقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال ـ تعالى ـ : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لايؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ...

(ج) ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، وعلى سابغ نعمه على عباده ...

قال ـ تعالى ـ : ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ..

(د) ثم حكت السورة قصة خلق آدم ـ عليه السلام ـ ، وتكليف الملائكة بالسجود له ، وأمتثالهم جميعا لأمر الله ـ سبحانه ـ ، وأمتناع إبليس وحده من الطاعة ، وصدور حكمه ـ سبحانه ـ بطرده من الجنة ...

قال ـ تعالى ـ : ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا

له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين ...

(هـ) ثم قصت علينا السورة الكريمة بأسلوب فيه الترغيب والترهيب ، وفيه العظة والعبرة ، جانبا من قصة إبراهيم ، ثم من قصة لوط ، ثم من قصة شعيب ، ثم من قصة صالح - عليهم الصلاة والسلام - ...

قال - تعالى - : ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قالوا لاتوجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ...

(و) ثم ختمت سورة الحجر بتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، وأمرته بالصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره ، وبشرته بأنه - سبحانه - سيكفيه شر أعدائه ، وبأنه سينصره عليهم ...

قال - تعالى - : وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم . لاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين ....

ومن هذا العرض الإجمالي للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت اهتماما واضحا بتثبيت المؤمنين وتهديد الكافرين ، تارة عن طريق الترغيب والترهيب ، وتارة عن طريق قصص السابقين ، وتارة عن طريق التأمل في

هذا الكون وما أشتمل عليه من مخلوقات تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته وسابغ رحمته ....

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة — صباح الأربعاء

٩ من ربيع الثاني سنة ١٤٠٢ هـ — ٣ من فبراير سنة ١٩٨٢ م

المؤلف

محمد سيد طنطاوى

رئيس قسم التفسير بالدراسات العليا — الجامعة الإسلامية

التفسير

قال الله تعالى: « الر، تِلْكَ آيَاتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ (١) رُبَمَا يودُّ الذينَ كفرُوا لو كانُوا مسلمينَ (٢) ذَرْهُم يأكُلُوا ويتمتَّعُوا ويُلهِهِم الأملُ فسوفَ يعلمونَ (٣) وما أهلَكْنَا من قريةٍ إلاَّ ولهاَ كِتَابٌ معلومٌ (٤) ما تَسبِقُ من أُمةٍ أجلَها وَمَا يستأخِرُون (٥) وقالُوا يأيُّها الذى نُزِّلَ عليهِ الذِّكْر إنكَ لمجنونٌ (٦) لَوْمَا تأتينا بالملائكةِ إنْ كنتَ من الصَّادقينَ (٧) ما نُنزِّلُ الملائكةَ إلا بالحقِّ وما كانُوا إذًا مُنظَرِينَ (٨) إنَّا نحنُ نزَّلنَا الذكرَ وإنَّا له لحافِظونَ (٩) ولقَد أرْسَلْنَا من قبلِكَ فى شِيَعِ الأولينَ (١٠) ومَا يأتِيهِمْ من رسُولٍ إلا كانُوا به يستَهْزِئُونَ (١١) كذلِكَ نسلُكُهُ فى قلوبِ المجرمينَ (١٢) لا يؤمِنُونَ به وقد خلتْ سُنَّةُ الأوَّلينَ (١٣) ولو فَتَحْنَا عليهِمْ باباً من السماء فَظَلُّوا فيه يعرُجونَ (١٤) لقالُوا إنما سُكِّرتْ أبصارُنا بل نحنُ قومٌ مسحورُونَ (١٥) ».

سورة الحجر من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى « الر ».

وقد بينا ـ بشىء من التفصيل ـ عند تفسيرنا لسور: البقرة، وآل عمران، والأعراف . . .

آراء العلماء فى هذه الحروف التى افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم.

وقلنا ماخلاصته : من العلماء من يرى أن المعنى المقصود منها غير معروف لأنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه . .

ومنهم من يرى أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه ، بل هى أسماء للسور التى أفتتحت بها .. أو هى حروف مقطعة بعضها من أسماء الله ، وبعضها من صفاته ...

ثم قلنا : ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى أفتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل .

وفضلا عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة ، يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الانصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا مايراد منها ، فيسمعوا حكما وهدايات قد تكون سببا فى استجابتهم للحق ، كما استجاب صالحو الجن الذين حكى الله ـ تعالى ـ عنهم أنهم عندما استمعوا إلى القرآن قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . . . . » .

واسم الإشارة « تلك » يعود إلى الآيات التى تضمنتها هذه السورة ، أو إلى جميع الآيات القرآنية التى نزلت قبل ذلك .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، ولا يقدح فى هذا ، ذكر لفظ القرآن بعده ، لأنه ـ سبحانه ـ جمع له بين الاسمين تفخيما لشأنه ، وتعظيما لقدره .

و « مبين » اسم فاعل من أبان الذى هو بمعنى بان ، مبالغة فى الوضوح والظهور

قال صاحب الصحاح : يقال : بان الشيء يبين بيانا ، أى اتضح ، فهو بين. وكذا أبان الشيء فهو مبين . . . »[١] .

والمعنى : تلك ـ أيها الناس ـ آيات بينات من الكتاب الكامل فى جنسه، ومن القرآن العظيم الشأن، الواضح فى حكمه وأحكامه ، المبين فى هدايته وإعجازه فأقبلوا عليها بالحفظ لها ، وبالعمل بتوجيهاتها ، لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .

قال الآلوسى : وفى جمع وصفى الكتابية والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه ، حيث أشير بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها ، وبالثانى إلى كونه ممتازا عن غيره ، نسيج وحده ، بديعا فى بابه ، خارجا عن دائرة البيان ، قرآنا غير ذى عوج . . »[١]

ثم بين — سبحانه — أن الكافرين سيندمون بسبب كفرهم فى وقت لا ينفع فيه الندم ، فقال — تعالى — : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» .

قال الشوكانى ما ملخصه : قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من« ربما»،وقرأ الباقون بتشديدها . . . وأصلها أن تستعمل فى القليل وقد تستعمل فى الكثير .

قال الكوفيون : أى يود الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين .

وقيل : هى هنا للتقليل، لأنهم ودوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها لشغلهم بالعذاب . . . »[٢]

وقد حاول بعض المفسرين الجمع بين القولين فقال : من قال بأن « ربما »

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٣ .

(٢) تفسير فتح القدير ج٣ ص ١٢١ .

هنا للتكثير نظر إلى كثرة تمنيهم أن لو كانوا مؤمنين ، ومن قال بأنها للتقليل نظر إلى قلة زمان إفاقتهم من العذاب بالنسبة إلى زمان دهشتهم منه ، وهذا لا ينافى أن التمنى يقع كثيرا منهم فى زمن إفاقتهم القليل ، فلا تخالف بين القولين(١)

والمعنى : ود الذين كفروا عندما تنكشف لهم الحقائق . فيعرفون أنهم على الباطل ، وأن المؤمنين على الحق ، أن لو كانوا مسلمين ، حتى ينجو من الخزى والعقاب .

ودخلت « رب » هنا على الفعل المضارع « يود » مع اختصاصها بالدخول على الفعل الماضى ، للإشارة إلى أن أخبار الله — تعالى — بمنزلة الواقع المحقق سواء أكانت للمستقبل أم لغيره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم دخلت على المضارع ، وقد أبوا دخولها إلا على الماضى ؟ قلت : لأن المترقب فى أخبار الله — تعالى — بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه ، فكأنه قيل : ربما ود الذين كفروا ... »(٢)

و (لو) فى قوله (لو كانوا مسلمين) يصح أن تكون امتناعية ، وجوابها محذوف ، والتقدير : لو كانوا مسلمين لسروا بذلك .

ويصح أن تكون مصدرية ، والتقدير : ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

وعلى كلا المعنيين فهى مستعملة فى التمنى الذى هو طلب حصول الأمر الممتنع الحصول .

وقال — سبحانه — (لو كانوا ...) بفعل الكون الماضى ، للإشعار بأنهم يودون الدخول فى الإسلام ، بعد مضى وقت التمكن من الدخول فيه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين بتصرف قليل جـ ٢ ص ٥٣٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٨٦ .

وعبر — سبحانه — عن متمناهم بالغيبة (كانوا)، نظراً لأن الكلام مسوق بصدد الإخبار عنهم، وليس بصدد الصدور منهم، ولو كان كذلك لقيل: لو كنا مسلمين.

هذا، وللمفسرين أقوال فى الوقت الذى ود فيه الكافرون أن لو كانوا مسلمين، فمنهم من يرى أن ودادتهم هذه تكون فى الدنيا، ومنهم من يرى أنها تكون عند الموت، ومنهم من يرى أنها تكون عند الحساب، وعند عفو الله عن عصاة المؤمنين.

والحق أن هذه الودادة تكون فى كل موطن يعرف فيه الكافرون بطلان كفرهم، وفى كل وقت ينكشف لهم فيه أن الإسلام هو الدين الحق.

فهم تمنوا أن لو كانوا مسلمين فى الدنيا، عندما رأوا نصر الله لعباده المؤمنين، فى غزوة بدر وفى غزوة الفتح وفى غيرهما، فعن ابن مسعود — رضى الله عنه — : ود كفار قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر الله للمسلمين»(١)

وهم تمنوا ذلك عند الموت كما حكى عنهم — سبحانه — ذلك فى آيات كثيرة منها قوله — تعالى — : «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلى أعمل صالحا فيما تركت ...»(٢)

وهم يتمنون ذلك عندما يعرضون على النار يوم القيامة. قال — تعالى — «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ...»(٣)

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٥.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٩٠.
(٣) سورة الأنعام الآية ٢٧.

وهم يتمنون ذلك عندما يرون عصاة المؤمنين ، وقد أخرجهم الله ـ تعالى برحمته من النار ، وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث الدالة على ذلك منها :

ما أخرجه الطبرانى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن ناسا من أهل « لا إله إلا الله » يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قولكم (لا إله إلا الله) وأنتم معنا فى النار ؟

قال فيغضب الله لهم ، فيخرجهم ، فيلقيهم فى نهر الحياة، فيبرأون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، فيدخلون الجنة . ويسمون فيها الجهنميين.

فقال رجل : يا أنس ، أنت سمعت هذا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) نعم ، أنا سمعت النبى ـ صلى الله وسلم يقول هذا)[١]

قال بعض العلماء : وأقوال العلماء فى هذه الآية راجعة إلى شيء واحد ، لأن من يقول : إن الكافر لما احتضر تمنى أن لو كان مسلما ، ومن يقول أنه إذا عاين النار تمنى أن لو كان مسلما ...

كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة ندموا على الكفر وتمنوا أنهم لو كانوا مسلمين)[٢]

وفى هذه الآية ما فيها من تثبيت للمؤمنين ، ومن تبشيرهم بأنهم على الحق ،

---

(٢) راجع تفسير ابن كثير . المجلد الرابع صـ ٤٣ طبعة دار الشعب

(٢) تفسير أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن) جـ ٣ صـ ١١٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

ومن حض للكافرين على الدخول فى الإسلام قبل فوات الأوان، ومن تحذير لهم من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

ثم أمر — سبحانه — الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأن يذرهم فى طغيانهم يعمهون ، بعد أن ثبت أنهم قوم لا ينفع فيهم إنذار فقال — تعالى — : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) .

و (ذر) فعل أمر بمعنى اترك ، ومضارعه يذر ، ولا يستعمل له ماض إلا فى النادر ، ومن هذا النادر ما جاء فى الحديث الشريف : (ذروا الحبشة ما وذرتكم) .

و (يتمتعوا) من المتاع بمعنى الانتفاع بالشىء بتلذذ وعدم نظر إلى العواقب .

ويلههم : من الانشغال عن الشىء ونسيانه ، يقال : فلان ألهاه كذا عن أداء واجبه ، أى شغله .

والأمل : الرغبة فى الحصول على الشىء ، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله .

والمعنى : اترك — أيها الرسول الكريم — هؤلاء الكافرين ، وذرهم وشأنهم ، ليأكلوا كما تأكل الأنعام، وليتمتعوا بدنياهم كما يشاءون، وليشغلهم أملهم الكاذب عن أتباعك ، فسوف يعلمون سوء عاقبة صنيعهم فى العاجل أو الآجل .

قال صاحب الكشاف : وقوله « ذرهم » يعنى أقطع طمعك من رعوائهم ، ودعهم من النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة، واتركهم « يأكلوا ويتمتعوا » بدنياهم ، وتنفيذ شهواتهم « ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، وألا يلقوا فى العاقبة إلا خيراً فسوف يعلمون سوء صنيعهم[1]

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٧

وإنما أمره ـ سبحانه ـ بذلك ، لعدم الرجاء فى صلاحهم ، بعد أن مكث فيهم الرسول ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ زمنا طويلا ، يدعوهم إلى الحق ، بأساليب حكيمة .

وفى تقديم الأكل على غيره ، إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب . قال ـ تعالى ـ : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)[1] كما أن فيه تعييرا لهم بما تعارفوا عليه من أن الاقتصار فى الحياة على إشباع اللذات الجسدية ، دون التفات إلى غـيرها من مكارم الأخلاق ، يدل على سقوط الهمة ، وبلادة الطبع . قال الحطيئة يهجو الزبرقان بن عمرو :

دع المـكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى : واقعد عن طلب المـكارم والمعالى فإنك أنت المطعوم المـكسو من جهة غيرك .

والفعل «يأكلوا» وما عطف عليه مجزوم فى جواب الأمر «ذرهم» ، وبعضهم يجعله مجزوم بلام الأمر المحذوفة ، الدالة على التوعد والتهديد ، ولا يستحسن جعله مجزوما فى جواب الأمر ، لأنهم يأكلون ويتمتعون سواء أترك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوتهم أم دعاهم .

والفاء فى قوله ـ سبحانه ـ (فسوف يعلمون) للتفريع الدال على الزجر والإنذار . والاستجابة للحق قبل فوات الأوان .

أى : ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانيـة ، لا تفكر فيها ولا تدبر ، ومن آمال خادعة براقة شغلتهم عن حقائق الأمور ، فسوف يعلمون سوء عاقبة ذلك وسوف يرون ما يحزنهم ويشقيهم ويبكيهم طويلا بعد أن ضحكوا قليلا . . .

وفى ذلك إشارة إلى أن لإمهالهم أجلا معينا ينقضى عنده ، ثم يأتيهم العذاب الأليم .

---

(١) سورة محمد الآية ١٢

قال الآلوسى - رحمه الله - : وفى هذه الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعم، وعدم الاستعداد للآخرة ، والتأهب لها ، ليس من أخلاق من يطلب النجاة .

وجاء عن الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل .

وأخرجه أحمد فى الزهد، والطبرانى فى الأوسط، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده — لا أعلمه إلا رفعه — قال : صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل وطول الأمل .

وفى بعض الآثار عن على - كرم الله وجهه - : إنما أخشى عليكم إثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق »[1] .

هذا ، وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون »[2] .

وقوله — تعالى — : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون »[3] .

وقوله — تعالى — : « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار »[4] .

ثم قرر — سبحانه — أن هلاك الأمم الظالمة ، موقوت بوقت محدد فى علمه ، وأن سنته فى ذلك ماضية لا تتخلف ، فقال - تعالى - « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ماتسبق من أمة أجلها ومايستأخرون » .

و« من » فى قوله « من قرية ومن أمة » للتأكيد . والمراد بالقرية أهلها .

والمراد بالكتاب المعلوم : الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - لهلاكها، شبه بالكتاب لكونه لا يقبل الزيادة أو النقص . والأجل : مدة الشىء .

أى : وما أهلكنا من قرية من القرى الظالم أهلها ، إلا ولهلاكها وقت محدد فى علمنا المحيط بكل شىء ، ومحال أن تسبق أمة من الأمم أجلها المقدر لها أو تتأخر عنه .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٩ — (٢) سورة الزخرف الآية ٨٣

(٣) سورة الطور الآية ٤٥ — (٤) سورة إبراهيم الآية ٣٠

قال إبن جرير — رحمه الله — عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه : يقول — تعالى — ذكره — « وما أهلكنا » يا محمد « من » أهل « قرية » من القرى التي أهلكنا أهلها فيما مضى « إلا ولها كتاب معلوم » أي : أجل مؤقت ومدة معروفة ، لا نهلكهم حتى يبلغوها ، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك ... دون أن يتقدم هلاكهم عن ذلك أو يتأخر »(١)

وجملة « إلا ولها كتاب معلوم » في محل نصب على الحال من قرية ، وصح ذلك لأن كلمة قرية وإن كانت نكرة ، إلا أن وقوعها في سياق النفي سوغ مجيء الحال منها .

أي : ما أهلكناها في حال من الأحوال ، إلا في حال بلوغها نهاية المدة المقدرة لبقائها دون تقديم أو تأخير .

قال — تعالى — « ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »(٢) وجملة « ما تسبق من أمة أجلها ... » بيان لجملة « إلا ولها كتاب معلوم » لتأكيد التحديد ، في بدئه وفي نهايته .

وحذف متعلق « يستأخرون » للعلم به ، أي : وما يستأخرون عنه .

والآيتان الكريمتان تدلان بوضوح ، على أن إمهال الظالمين ليس معناه ترك عقابهم ، وإنما هو رحمة من الله بهم لعلهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويسلكوا الطريق القويم ...

فإذا ما لجوا في طغيانهم ، حل بهم عقاب الله — تعالى — في الوقت المحدد في علمه — سبحانه —

قال صاحب الظلال : ولقد يقال : إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهي مع ذلك قوية ثرية باقية وهذا وهم .

---

(١) تفسير إبن جرير جـ ١٤ ص ٥
(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤

فلا بد من بقية من خير فى هذه الأمم ، ولو كان هو خير العمارة للأرض وخير العدل فى حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادى والإحسان المحدود بحدودها .

فإلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها ، فلا تبقى فيها من الخير بقية ثم تنتهى حتى إلى المصير المعلوم . إن سنة الله لا تتخلف . ولكل أمة أجل معلوم »(١) .

ثم حكى — سبحانه — سوء أدب هؤلاء الكافرين مع رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين .

والقائلون هم بعض مشركى قريش .

قال مقاتل : نزلت الآيتان فى عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم . قال - تعالى - « وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون »(٢) .

مجنون : اسم مفعول من الجنون ، وهو فساد العقل .

ولوما : حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمنى ، ومن ما الزائدة فأفاد المجموع الحث على الفعل .

والمعنى : وقال الكافرون لرسولهم — صلى الله عليه وسلم — على سبيل الاستهزاء والتهكم : « يأيها » المدعى بأن الوحى ينزل عليك بهذا القرآن الذى

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ١٤ ص ٢١٦٦ للأستاذ سيد قطب .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٥٠ .

تتلوه علينا ، « إنك لمجنون » بسبب هذه الدعوى التي تدعيها . وبسبب طلبك منا اتباعك وتركنا ما وجدنا عليه آباءنا ...

هلا إن كنت صادقا فى دعواك ، أن تحضر معك الملائكة ، ليخبرونا بأنك على حق فيما تدعيه ، وبأنك من الصادقين فى تبليغك عن الله — تعالى — ما أمرك بتبليغه ؟

وأكدوا الحكم على الجنون بإن واللام ، لقصدهم تحقيق ذلك فى نفوس السامعين ممن هم على شاكلتهم فى الكفر والضلال، حتى ينصرفوا عن الاستماع إليه - صلى الله عليه وسلم - .

قال الآلوسى : يعنون يا من يدعى مثل هذا الأمر العظيم ، الخارق للعادة إنك بسبب تلك الدعوى تحقق جنونك على أتم وجه . وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاما يستبعده . أنت مجنون »[١] فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا ألوانا من سوء أدبهم منها :

مخاطبتهم له - صلى الله عليه وسلم - بهذا الأسلوب الذال على التهكم والاستخفاف ، حيث قالوا : « يأيها الذى نزل عليه الذكر ، مع أنهم لا يقرون بنزول شيء عليه :

ووصفهم له بالجنون ، وهو - صلى الله عليه وسلم - أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم فكرا ...

وشكهم فى صدقه وحيث طلبوا منه - على سبيل التعنت - أن يحضر معه الملائكة ليعاضدوه فى دعواه كما قال تعالى فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . »[٢] .

وقوله - تعالى - : « لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا »[٣]

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١١ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٢١ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٧ .

وقد رد الله — تعالى — عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم فقال: «ما ننزل الملائكة إلا بالحق، وما كانوا إذا منظرين».

وقرأ الجمهور «ما تنزل» - بفتح التاء والزاى على أن أصله تتنزل - ورفع الملائكة على الفاعلية.

وقرأ أبو بكر عن عاصم «ما تنزل» - بضم التاء وفتح الزاى على البناء للمجهول - ورفع الملائكة على أنه نائب فاعل

وقرأ الكسائى وحفص عن عاصم «ما ننزل» - بنون فى أوله وكسر الزاى - ونصب الملائكة على المفعولية والباء فى قوله «إلا بالحق» للملابسة.

أى: ما ننزل الملائكة إلا تنزيلا ملتبسا بالحق، أى: بالوجه الذى تقتضيه حكمتنا وجرت به سنتنا، كأن ننزلهم لإهلاك الظالمين، أو لتبليغ وحينا إلى رسلنا، أو لغير ذلك من التكاليف التى نريدها ونقدرها، والتى ليس منها ما اقترحه المشركون على رسولنا - صلى الله عليه وسلم - من قولهم «لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين»، ولذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا عدم إجابة مقترحاتهم.

وقوله «وما كانوا إذا منظرين» بيان لما سيحل بهم فيما لو أجاب الله -تعالى- مقترحاتهم.

و «إذا» حرف جواب وجزاء.

و «منظرين» من الإنظار بمعنى التأخير والتأجيل.

وهذه الجملة جواب لجملة شرطية محذوفة، تفهم من سياق الكلام والتقدير: ولو أنزل - سبحانه - الملائكة مع الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وبقى هؤلاء المشركون على شركهم مع ذلك، لعوجلوا بالعقوبة المدمرة لهم، وما كانوا إذا ممهلين أو مؤخرين، بل يأخذهم العذاب بغتة.

قال الإمام الشوكانى: قوله «وما كانوا إذا منظرين» فى الكلام حذف

والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين . فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة »[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون »[2] .

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه قد تكفل بحفظ هذا القرآن الذى سبق للكافرين أن استهزءوا به ، وبمن نزل عليه فقال ـ تعالى ـ : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

أى : إنا نحن بقدرتنا وعظم شأننا نزلنا هذا القرآن الذى أنكرتموه ، على قلب نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وإنا » لهذا القرآن « لحافظون » من كل ما يقدح فيه ، كالتحريف والتبديل ، والزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف ولحافظون له ، بالاعجاز ، فلا يقدر أحد على معارضته أو على الاتيان بسورة من مثله ، ولحافظون له بقيام طائفة من أبناء هذه الأمة الاسلامية باستظهاره وحفظه والذب عنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال صاحب الكشاف : قوله « إنا نحن نزلنا الذكر » رد لانكارهم واستهزائهم فى قولهم « يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » ، ولذلك قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذى بعث به جبريل إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن بين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين ، وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة ونقصان ... »[3] .

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ١٢٢ للشوكانى .
(٢) سورة الأنعام الآية ٨ .
(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨ .

وقال الآلوسى : ماملخصه : «ولايخفى مافى سبك الجملتين - إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون - من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة ، وعلى فخامة شأن التنزيل ، وقد اشتملتا على عدة من وجوه التأكيد . و« نحن » ليس ضمير فصل لأنه لم يقع بين اسمين ، وإنما هو إما مبتدأ أو توكيد لاسم إن . والضمير فى « له » للقرآن كما هو الظاهر ، وقيل هو للنبى - صلى الله عليه وسلم ... »(١)

هذا ونحن ننظر فى هذه الآية الكريمة ، من وراء القرون الطويلة منذ نزولها فنرى أن الله - تعالى - قد حقق وعده فى حفظ كتابه ، ومن مظاهر ذلك :

١ - أن ما أصاب المسلمين من ضعف ، ومن فتن ، ومن هزائم ، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ..

هذا الذى أصابهم فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، لم يكن له أى أثر على قداسة القرآن الكريم ، وعلى صيانته من أى تحريف .

ومن أسباب هذه الصيانة أن الله - تعالى - قيض له فى كل زمان ومكان ، من أبناء هذه الأمة ، من حفظه عن ظهر قلب ، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر فى كل مصر .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : فلماذا اشتغل الصحابة بجمع القرآن فى المصحف ، وقد وعد الله بحفظه ، وما حفظه الله فلا خوف عليه ؟

فالجواب : أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله - تعالى - إياه ، فإنه - سبحانه - لما إن حفظه قيضهم لذلك ... »(٢)

٢ - أن أعداء هذا الدين - سواء أكانوا من الفرق الضالة المنتسبة للإسلام أم من غيرهم - امتدت أيديهم الآثمة إلى أحاديث النبى - صلى الله

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٥ .
(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٦٠ .

عليه وسلم - فأدخلوا فيها ماليس منها ... وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتنقية السنة النبوية مما فعله هؤلاء الأعداء ...

ولكن هؤلاء الأعداء، لم يقدروا على شيء واحد، وهو إحداث شيء في هذا القرآن، مع أنهم وأشباههم في الضلال، قد أحدثوا ما أحدثوا في الكتب السماوية السابقة ...

قال بعض العلماء. سئل القاضي إسماعيل[1] البصري عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من ذلك فأجاب بقوله : إن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال : « بما استحفظوا من كتاب الله »، وتولى - سبحانه - حفظ القرآن بذاته فقال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[2].

وقد ذكر الامام القرطبي مايشبه ذلك نقلا عن سفيان بن عيينه في قصة طويلة[3].

والخلاصة، أن سلامة القرآن من أي تحريف - رغم حرص الأعداء على تحريفه ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام، ورغم تطاول القرون والدهور - دليل ساطع على أن هناك قوة خارقة - خارجة عن قوة البشر - قد تولت حفظ هذا القرآن، وهذه القوة هي قوة الله - عز وجل - ولا يماري في ذلك إلا العنيد الجهول ...

---

(١) هو القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد الأزدي البصري ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٨٢. كان من الأئمة الأعلام في التفسير والحديث والفقه.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٤ ص ٢١ لسماحة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

(٣) راجع تفسير القرطبي جـ ١٠ ص ٥.

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات مافيه تعزية وتسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من سفهاء قومه ، فأخبره بأن ما أصابه منهم يشبه مافعله المكذبون السابقون مع رسلهم ، فقال - تعالى « ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون .

كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لايؤمنون به وقد خلت سنة الأولين .

قال الجمل : لما أساؤا فى الأدب ، وخاطبوه - صلى الله عليه وسلم - خطاب السفاهة ، حيث قالوا له : « إنك لمجنون » ، سلاه الله فقال له : إن عادة الجهال مع جميع الأنبياء كانت هكذا ، وكانوا يصبرن على أذى الجهال . ويستمرون على الدعوة والانذار ، فاقتد أنت بهم فى ذلك ... »[1]

والشيع جمع شيعة وهى الطائفة من الناس المتفقة على طريقة ومذهب واحد ، من شاعه إذا تبعه ، وأصله - كما يقول القرطبى - مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار توقد به الكبار .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلا كثيرين ، فى طوائف الأمم الأولين ، فدعا الرسل أقوامهم إلى مادعوت إليه انت قومك من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - ، فما كان من أولئك المدعوين السابقين إلا أن قابلت كل فرقة منهم رسولها بالسخرية والاستهزاء ، كما قابلك سفهاء قومك .

وذلك لأن المكذبين فى كل زمان ومكان يتشابهون فى الطباع الذميمة ، وفى الأخلاق القبيحة . كما قال - تعالى - : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون »[2] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢٩

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣

والجار والمجرور « من قبلك » متعلق بأرسلنا ، أو بمحذوف وقع نعتا لمفعوله المحذوف ، أي : ولقد أرسلنا رسلا كائنة من قبلك .

وإضافة الشيع إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند بعض النحاة ، أو من حذف الموصوف عند البعض الآخر ، أي شيع الأمم الأولين.

وعبر بقوله ـ سبحانه ـ « إلا كانوا به يستهزئون » للإشعار بأن الاستهزاء بالرسل كان طبيعة فيهم ـ كما يومىء إليه لفظ كان ، وأنه متكرر منهم ـ كما يفيده التعبير بالفعل المضارع ـ والكاف في قوله « كذلك نسلكه ... » للتشبيه ، واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى السلك المأخوذ من نسلكه .

والسلك مصدر سلك ـ من باب نصر ـ وهو إدخال الشيء في الشيء ، كإدخال الخيط في المخيط .

والضمير المنصوب في « نسلكه » يعود إلى القرآن الكريم الذي سبق الحديث عنه .

والمراد بالمجرمين في قوله « في قلوب المجرمين » مشركو قريش ومن لف لفهم .

والمعنى : كما سلكنا كتب الرسل السابقين في قلوب أولئك المستهزئين نسلك القرآن في قلوب هؤلاء المجرمين من قومك يا محمد ، بأن نجعلهم يسمعونه ويفهمونه ويدركون خصائصه دون أن يستقر في قلوبهم استقرار تصديق وإذعان ، لاستيلاء الجحود والعناد والحسد عليهم .

وقوله « لا يؤمنون به » بيان للسلك المشبه به ، أو حال من المجرمين .

أي : أدخلنا القرآن في قلوبهم ففهموه ، ولكنهم لا يؤمنون به عنادا وجحودا .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير في « نسلكه » وفي « به » يعودان إلى القرآن الكريم ، الذي سبق الحديث عنه في قوله ـ تعالى ـ « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ومن المفسرين الذين ذكروا هذا الوجه ولم يذكروا سواه صاحب الكشاف ، فقد قال : « والضمير في قوله « نسلكه » للذكر : أي : مثل ذلك السلك ونحوه نسلك الذكر «في قلوب المجرمين» على معنى أن يلقيه في قلوبهم مكذبا مستهزءاً به غير مقبول . كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها: فقلت: كذلك أنزلها باللئام : تعني مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية .

ومحل قوله « لا يؤمنون به » النصب على الحال ، أي : غير مؤمن به . أو هو بيان لقوله « كذلك نسلكه .. »[(١)]

وقد زكى هذا الوجه صاحب الانتصاف فقال : والمراد ـ والله أعلم ـ إقامة الحجة على المكذبين ، بأن الله ـ تعالى ـ سلك القرآن في قلوبهم ، وأدخله في سويدائها ، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء ، وصدق به هؤلاء ، كل على علم وفهم « ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ... » ، ولئلا يكون للكفار حجة بأنهم مافهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن ... »[(٢)]

ويرى بعض المفسرين ـ كالإمام ابن جرير ـ أن الضمير في نسلكه يعود إلى الكفر الذي سلكه الله في قلوب المكذبين السابقين ، أما الضمير في « به » فيعود إلى القرآن الكريم ، فقد قال :

قوله ـ تعالى ـ « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به ... » يقول ـ تعالى ـ ذكره ـ كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسل ، كذلك نفعل ذلك في قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بسبب الكفر بالله .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨

(٢) حاشية الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨

« لا يؤمنون به » يقول : لا يصدقون بالذكر الذى أنزل إليك ... »(١) .

ومع أن هذا التفسير الذى ارتضاه شيخ المفسرين ابن جرير له وجاهته ، إلا أننا نميل إلى التفسير الأول الذى ارتضاه صاحب الكشاف ، لأنه المتبادر من معنى الآية ، ومن المفسرين الذين رجحوا ذلك الفخر الرازى ، فقد قال — رحمه الله — خلال كلام طويل ما ملخصه : « التأويل الصحيح أن الضمير فى قوله — تعالى — « كذلك نسلكه » عائد إلى الذكر ، الذى هو القرآن ، فانه — تعالى — قال قبل هذه الآية « إنا نحن نزلنا الذكر » وقال بعده « كذلك نسلكه » اى : هكذا نسلك القرآن فى قلوب المجرمين .

والمراد من هذا السلك ، هو أنه — تعالى — يسمعهم هذا القرآن ، ويخلق فى قلوبهم حفظه والعلم بمعانيه ، إلا أنهم مع هذه الأحوال لا يؤمنون به عنادا وجهلا . . ،

ويدل على صحة هذا التأويل ، أن الضمير فى قوله « لا يؤمنون به » عائد على القرآن بالإجماع ، فوجب أن يكون الضمير فى « نسلكه » عائدا إليه — أيضا — لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شىء واحد . . »(٢)

وقوله — سبحانه — « وقد خلت سنة الأولين » تهديد لهؤلاء المكذبين من كفار مكة ومن سار على شاكلتهم ، وتكملة للتسلية لرسول الله — صلى الله عليه وسلم .

أى : وقد مضت سنة الله التى لا تختلف وطريقته المألوفة بأن ينزل عذابه بالمجرمين ، كما أنزله بالأمم الماضية ، بسبب تكذيبها لرسلها ، واستهزائها بهم فلا تحزن — أيها الرسول الكريم — لما أصابك من سفهاء قومك فسننصرك عليهم .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٩

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ١٦٣ طبعة عبد الرحمن محمد

وأضاف – سبحانه – السنة إلى الأولين ، باعتبار تعلقها بهم ، وإنما هى سنة الله فيهم لأنها المقصود هنا ، والإضافة لأدنى ملابسة .

ثم ختم – سبحانه – هذه الآيات الكريمة ، برسم صورة عجيبة لعناد هؤلاء المكذبين ولجحودهم للحق بعدما تبين فقال : ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

وقوله – سبحانه – « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ... » معطوف على قوله « لا يؤمنون به .. » لإبطال معاذيرهم ، ولبيان أن سبب عدم إيمانهم هو الجحود والعناد ، وليس نقصان الدليل والبرهان على صحة ماجاء به النبى – صلى الله عليه وسلم – .

قال الإمام الرازى . وقوله – تعالى – « فظلوا فيه يعرجون » يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا ، إذا فعله بالنهار ، ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات يبيت إلا بالليل . والمصدر الظلول »[1] .

ويعرجون : من العروج ، وهو الذهاب فى صعود ، وفعله من باب دخل ، يقال عرج فلان إلى الجبل يعرج إذا صعد ، ومنـــه المعراج والمعارج أى المصاعد .

وقوله « سكرت » من السكر – بفتح السين المشددة وسكون الكاف – بمعنى السد والحبس والمنع . يقال سكرت الباب أسكره سكرا ، إذا سددته ، والتشديد فى « سكرت » للمبالغة . وهو قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير « سكرت » بكسر الكاف بدون تشديد – .

وقوله « مسحورون » اسم مفعول من السحر ، بمعنى الخداع والتخييل والصرف عن الشىء إلى غيره :

والمعنى : أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الغلو فى الكفر والعناد ، أننا لو فتحنا

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٦٦

لهم بابا من أبواب السماء، ومكناهم من الصعود إليه، فظلوا فى ذلك الباب يصعدون، ويطلعون على ملكوت السموات وما فيها من الملائكة والعجائب لقالوا بعد هذا التمكين والإطلاع - لفرط عنادهم وجحودهم -، إنما أبصارنا منعت من الإبصار، وما نراه ما هو إلا لون من الخداع والتخييل والصرف عن إدراك الحقائق بسبب سحر محمد - صلى الله عليه وسلم - لنا وعلى هذا التفسير الذى سار عليه جمهور المفسرين، يكون الضمير فى قوله «فظلوا» يعود إلى هؤلاء المشركين المعاندين.

وقيل الضمير للملائكة، فيكون المعنى: فظل الملائكة فى هذا الباب يعرجون، والكفار يشاهدونهم وينظرون اليهم، لقالوا - أى الكفار - بعد كل ذلك، «إنما سكرت أبصارنا ...»

وعلى كلا الرأيين فالآية الكريمة تصور أكمل تصوير، مكابرة الكافرين وعنادهم المزرى.

وعبر - سبحانه - بقوله «فظلوا ..» ليدل على أن عروجهم كان فى وضح النهار، بحيث لا يخفى عليهم شىء مما يشاهدونه.

وجمعوا فى قولهم بين أداة الحصر «إنما» وبين أداة الإضراب «بل» للدلالة على البت بأن ما يرونه لاحقيقة له، بل هو باطل، وما يرونه ما هو إلا من تخيلات المسحور.

وقالوا «بل نحن قوم مسحورون» ولم يقولوا بل نحن مسحورون» للاشعار بأن السحر قد تمكن منهم جميعا، ولم يخص بعضا منهم دون بعض.

قال الشوكانى: وفى هذا بيان لعنادهم العظيم الذى لايقلعهم عنه شىء من الأشياء كائنا ما كان، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقى لعارض الانسداد

أو أن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح . ومن بلغ فى التعنت إلى هذا الحد ، فلا تنفع فيه موعظة ولا يهتدى بآية » (١)

وبذلك نجد السورة الكريمة قد حدثتنا فى خمس عشرة آية من مطلعها إلى هنا ، عن سمو منزلة القرآن الكريم ، وعن حسرات الكافرين يوم تتجلى لهم الحقائق ، وعن إستهزائهم بالرسول - صلى عليه وسلم - ، وعن رد القرآن عليهم ؛ وعن تسلية الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم . . . .

ثم إنتقلت السورة بعد ذلك ، فساقت ألواناً من النعم الداله على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وشمول علمه ، فقال - تعالى - .

« ولقد جَعلنَا فى السماءِ بُروجاً وزيَّنَّاهَا للناظرين (١٦) وحَفظناَها من كلِّ شيطانٍ رجيمٍ (١٧) إلاَّ مَن استرقَ السَّمعَ فأتبعَهُ شهابٌ مبينٌ (١٨) والأرضَ مددْنَاهَا وألقينَا فيها رَواسِيَ وأنبَتْنَا فيها من كلِّ شيءٍ موزُونٍ (١٩) وجَعلنَا لكُم فيها معايشَ ، ومَنْ لستُم لهُ برازِقينَ (٢٠) وإنْ مِنْ شيءٍ إلاَّ عندَنا خزائِنُه ، وما ننزِّلُه إلا بقدرٍ معلومٍ (٢١) وأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لواقحَ فأنزَلْنَا من السماءِ ماءً فأسْقَينَاكُموه وما أنتُم له بخَازِنِينَ (٢٢) وإنَّا لنحنُ نُحيي ونميتُ ونحنُ الوارثُون (٢٣) ولقد عَلِمنا المستقدمينَ منكُم ولقَد عَلِمنَا المُستأخرين (٢٤) وإنَّ ربَّك هو يحشُرهم إنّه حكيمٌ عليمٌ (٢٥) » .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : لما ذكر - سبحانه - كفر الكافرين ، وعجز أصنامهم ، ذكر كمال قدرته ليستدل بها على وحدانيته .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٣ ص ١٢٢

والبروج : القصور والمنازل . قال إبن عباس . أي جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر، أي : منازلهما . وأسماء هذه البروج : الحمل والثور والجوزاء والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي والدلو، والحوت.

والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب ...

وقال الحسن وقتادة : البروج : النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وإرتفاعها ...

وقيل البروج : الكواكب العظام ... » (١)

قال بعض العلماء ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد، لأن أصل البروج في اللغة الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، بإظهار زينتها ، فالكواكب ظاهرة ، والقصور ظاهرة ، ومنازل الشمس والقمر كالقصور بجامع أن الكل يحل ينزل فيه .. » (٢)

و « جعلنا » أي خلقنا وأبدعنا ، فيكون قوله « في السماء » متعلقا بمحذوف على أنه مفعول ثان له و« بروجا » هو المفعول الأول .

اي : ولقد خلقنا وأبدعنا منازل وطرقا في السماء ، تسير فيها الكواكب بقدرتنا ، وإرادتنا ، وحكمتنا . دون خلل أو إضطراب .

وفي ذلك الخلق ما فيه من منافع لكم ، حيث تستعملون هذه البروج في ضبط المواقيت وفي تحديد الجهات ، وفي غير ذلك من المنافع، كما قال - تعالى -

---

(١) تفسير القرطبي حـ ١ ص ٩
(٢) تفسير أضواء البيان حـ ٣ ص ١٢٠ للشيخ محمد الأمين الشنقيطي

هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا وقدره منازل ، لتعلموا عـــدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون »[٢]

وافتتح — سبحانه — الآية الكريمة بلام القسم وقد ، تنزيلا للمخاطبين الذاهلين عن الالتفات إلى مظاهر قدرة الله — تعالى — منزلة المنكرين ، فأكد لهم الكلام بمؤكدين لينتبهوا ويعتبروا .

والضمير فى قوله « وزيناها . . . » يعود إلى السماء . أى : وزينا السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء ، لتكون جميلة فى عيون الناظرين اليها ، وآية للمتفكرين فى دلائل قدرة الله — تعالى — وبديع صنعه .

وهذه الجملة الكريمة، تلفت الأنظار الى أن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون ، كما تشعر المؤمنين بأن من الواجب عليهم أن يجعلوا حياتهم مبنية على الجمال فى الظاهر وفى الباطن ، تأسيا بسنة الله — تعالى — فى خلق هذا الكون .

ثم وضح — سبحانه — بأن هذا التزيين للسماء ، مقرون بالحفظ والصيانة والطهارة من كل رجس فقال — تعالى — « وحفظناها من كل شيطان رجيم »

والمراد بالشيطان هنا : المتمرد من الجن ، مشتق من شطن بمعنى بعد ، إذ الشيطان بعيد بطبعه عن كل خير

والرجيم ، أى المرجوم المحقر ، مأخوذ من الرجم ، لأن العرب كانوا إذا إحتقروا أحداً رجموه بالقطع من الحجارة ، وقد كان العرب يرجمون قبر أبى رغال الثقفى ، الذى أرشد جيش الحبشة إلى مكة لهدم الكعبة . قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبى رغال

---

(١) سورة يونس الآيه ٥

والمعنى : ولقد جعلنا فى السماء منازل وطرقا للكواكب ، وزيناها — أى السماء - للناظرين اليها ، وحفظناها من كل شيطان محقر مطرود من رحمتنا بأن منعناه من الإستقرار فيها ، ومن أن ينفث فيها شروره ومفاسده ، لأنها موطن الأخيار الأطهار .

قال - تعالى - : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد »(١)

وقال - تعالى - : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطن .... »(٢)

وقوله - سبحانه - : « إلا من إسترق السمع فأتبعه شهاب مبين » فى محل نصب على الإستثناء ، وإستراق السمع : إختلاسه وسرقته ، والمراد به : الاستماع إلى المتحدث خفية ، حتى لكأن المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذى يخفيه عنه ، فالسمع هنا بمعنى المسموع من الكلام والشهاب : هو الشعلة الساطعة من النار ، المنفصلة من الكواكب التى ترى فى السماء ليلا ، كأنها كوكب ينقض بأقصى سرعة . وجمعه شهب . وأصله من الشهبة ، وهى بياض مختلط بسواد .

و « مبين » أى ظاهر واضح للمبصرين.

والإستثناء منقطع ، فيكون المعنى : وحفظنا السماء من كل شيطان رجيم لكن من إختلس السمع من الشياطين ، بأن حاول الإقتراب منها ، فإنه يتبعه شهاب واضح للناظرين فيحرقه ، أو يحول بينه وبين إستراق السمع .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : إلا من إسترق السمع فأتبعه شهاب مبين أى . لكن من استرق السمع ، أى الخطفة اليسيرة ، فهو إستثناء منقطع .

(١) سورة الصافات الآيتان ٦ ، ٧

(٢) سورة الملك الآية ٥

وقيـل : هو متصل ، أى : إلا من استرق السمع . أى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى وغيره ، إلا من استرق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبـار السماء سوى الوحى ، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئا لقوله ـ تعالى ـ « إنهم عن السمع لمعزولين »

واذا استمع الشياطين الى شيء ليس بوحى ، فإنهم يقـذفونه الى الـكهنة فى أسرع من طرفة عين ، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم ... [١]

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ انا زينا السماء الدنيا بزينة الـكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد لايسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الامن خطف الخطفه فأتبعه شهاب ثاقب »[٢].

قال بعض العلماء ما ملخصـه : والمقصود منع الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم اطلاعهم عليه .. وربما استدرج الله ـ تعـالى ـ الشياطين وأولياءهم ، فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه الى الـكهان ، فلما أراد ـ سبحانه ـ عصمة الوحى منعهم من ذلك بتاتا ..

وفى سورة الجن دلالة على أن المنع الشديد من استراق السمع كان بعد البعثة النبوية ، وبعد نزول القرآن ، إحكاما لحفظ الوحى من أن يلتبس على الناس بالـكهانة . . .

قال ـ تعالى ـ : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »[٣] .

وعلى ذلك يكون ماجاء فى بعض الأحاديث من استراق الجن السمع وصفا للـكهانة السابقة ، ويكون قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليسوا بشيء ... » وصفا لآخر أمرهم ..

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١١

(٢) سورة الصافات الآيات ٦ : ١٠

(٣) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩

ففى صحيح البخارى عن عائشة : أن ناسا سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الكهانة ، فقال : « ليسوا بشيء » .

- أى لا وجود لما يزعمون - . فقيل : يارسول الله ، فإنهم يحدثون أحيانا بالشيء فيكون حقا .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه قر الدجاجة - أى فيلقيها بصوت خافت كالدجاجة عندما تخفى صوتها - فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة »[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض الدلائل السماوية الدالة على قدرته ووحدانيته ، أتبع ذلك ببيان بعض الدلائل الأرضية فقال - تعالى - : والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » . وقوله « رواسى » من الرسو وهو ثبات الأجسام الثقيلة . يقال رسا الشيء يرسو أى ثبت .

أى : ومن الأدلة - أيضا - على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا مددنا الأرض وفرشناها وبسطناها ، لتتيسر لكم الحياة عليها قال - تعالى - « والأرض فرشناها فنعم الماهدون »[2] .

وأننا - أيضا - وضعنا فيها جبالا ثوابت راسخات تمسكها عن الاضطراب وعن أن تميد بكم . قال - تعالى - : « خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم »[3] .

وأننا - أيضا - أنبتنا فى الأرض من كل شيء « موزون » أى : مقدر بمقدار معين وموزون بميزان الحكمة ، بحيث تتوفر فيه كل معانى الجمال والتناسق . قال - تعالى - : « إن كل شيء خلقناه بقدر »[4] .

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١٤ ص ٢٤

(٢) سورة الذاريات الآية ٤٨

(٣) سورة لقمان الآية ١٠ (٤) سورة القمر الآية ٤٩

وأننا ـ كذلك ـ « جعلنا لكم فيها معايش ... » والمعايش : جمع معيشة، وهى فى الأصل مصدر عاش يعيش عيشا وعيشة ومعاشاً ، ومعيشة ، إذا صار ذا حياة . ثم أستعمل هذا اللفظ فيما يعاش به ، أو فيما يتوصل به إلى العيش.

أى : وجعلنا لكم فى الأرض ماتعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورات الحياة التى تحيونها .

وجملة « ومن لستم له برازقين » معطوفة على « معايش » .

والمراد بمن لستم له برازقين : مايشمل الأطفال والعجزة والأنعام وغير ذلك من مخلوقات الله التى تحتاج إلى العون والمساعدة .

أى : وجعلنا لكم فى الأرض ماتعيشون به أو ماتتوصلون به إلى ذلك من المكاسب والتجارات، وجعلنا لكم فيها ـ أيضا ـ من لستم له برازقين من العيال والخدم والدواب ... ، وإنما الرازق لهم هو الله ـ تعالى ـ رب العالمين ، إذ ما من دابة فى الأرض إلا على الله وحده رزقها . ومايزعمه الجاهلون من أنهم هم الرازقون لغيرهم ، هو لون من الغرور والافتراء ، لأن الرازق للجميع هو الله رب العالمين .

وعبر بمن فى قوله « ومن لستم » تغليبا للعقلاء على غيرهم .

قال الإمام ابن كثير : والمقصود ـ من هذه الجملة ـ أنه ـ تعالى ـ يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب، وصنوف المعاشات وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها ، والأنعام التى يأكلونها ، والعبيد والإماء التى يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله ـ تعالى ـ »[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن كل شىء فى هذا الكون ، خاضع لإرادته

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٧

وقدرته وتصرفه . فقال ـ تعالى ـ « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

و « إن » نافية بمعنى ما ، و « من » مزيدة للتأكيد و « خزائنه » جمع خزانة ، وهي في الأصل تطلق على المكان الذي توضع فيه نفائس الأموال للمحافظة عليها .

والمعنى : وما من شيء من الأشياء الموجودة في هذا الكون ، والتي يتطلع الناس إلى الانتفاع بها . إلا ونحن قادرون على إيجادها وإيجاد أضعافها بلا تكلف أو إبطاء ، كما قال ـ تعالى ـ : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »[1] .

فقد شبه ـ سبحانه ـ اقتداره على إيجاد كل شيء ، بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، والمعدة لإخراج مايشاء إخراجه منها بدون كلفة أو إبطاء .

والمراد بالإنزال في قوله «وما ننزله إلا بقدر معلوم»: الإيجاد والإخراج إلى هذه الدنيا ، مع تمكين الناس من الحصول عليه .

أي : وما نخرج هذا الشيء إلى حيز الوجود بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به إلا ملتبسا بمقدار معين ، وفي وقت محدد ، تقتضيه حكمتنا ، وتستدعيه مشيئتنا ، ويتناسب مع حاجات العباد وأحوالهم ، كما قال ـ تعالى ـ « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر مايشاء ، إنه بعباده خبير بصير »[2] .

ثم انتقل ـ سبحانه ـ من الاستدلال على وحدانيته وقدرته بظواهر السماء وبظواهر الأرض ، إلى الاستدلال على ذلك بظواهر الرياح والأمطار فقال ـ تعالى ـ : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » ، والآية الكريمة معطوفة على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : « وجعلنا

(١) سورة يس الآية ٨٢ (٢) سورة الشورى الآية ٢٧

لكم فيها معايش ، ومابينهما أعتراض لتحقيق ماسبق ذكره من نعم

والمراد بإرسال الرياح هنا : نقلها من مكان إلى آخر بقدرة الله - تعالى - وحـــكمته .

وقوله « لواقح » يصح أن يكون جمع لاقح ، وأصل اللاقح : الناقة التى قبلت اللقاح فحملت الجنين فى بطنها ..

ووصف - سبحانه - الرياح بكونها لواقح ، لأنها حوامل تحمل ما يكون سببا فى نزول الأمطار كما تحمل النوق الأجنة فى بطونها .

أى : وأرسلنا بقدرتنا ورحمتنا الرياح حاملة للسحاب وللأمطار ولغيرهما، مما يعود على الناس بالنفع والخير والبركة .

ويصح أن يكون لفظ « لواقح » جمع ملقح - اسم فاعل - وهو الذى يلقح غيره ، فتكون الرياح ملقحة لغيرها كما يلقح الذكر الأنثى .

قال الإمام ابن كثير : قوله « وأرسلنا الرياح لواقح » أى : تلقح السحب فتدر ماء . وتلقح الأشجار فتتفتح عن أوراقها وأكمامها »(١) .

وقال بعض العلماء : ومعنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين، فينشأ عن ذلك البخار الذى يصير ماء فى الجو، ثم ينزل مطرا على الأرض . وأنها تلقح الشجر ذى الثمرة ، بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر ، فتصلح ثمرته أو تثبت ...

وهذا هو الإبار . وبعضه لايحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة . وبعضه يكتفى منه بغرس شجرة ذكر فى خلال شجر الثمر .

ومن بلاغة الآية الكريمة ، إيراد هـــذا الوصف - لواقح - لإفادة كلا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٨

العملين اللذين تحملهما الرياح - وهما الحمل للسحاب والمطر وغيرهما، أو التلقيح لغيرها - . » (٢) .

وقوله « فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه . . . » تفريع على ما تقدم .

أي : وأرسلنا الرياح بقدرتنا من مكان إلى آخر ، حالة كونها حاملة للسحاب وغيره ، فأنزلنا - بسبب هذا الحمل - من جهة السماء ، ماء كثيراً هو المطر ، لتنتفعوا به في شرابكم ، وفي معاشكم ، وفي غير ذلك من ضروريات حياتكم .

قال - تعالى - : هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمـــرات . . . » (١) .

وقوله « وما أنتم له بخازنين » تتميم لنعمة إنزال الماء .

أي : أنزلنا المطر من السماء ، وليست خزائنه عندكم، وإنما نحن الخازنون له ، ونحن الذين ننزله متى شئنا ، ونحن الذين نمنعه متى شئنا ، كما قال - تعالى - قبل ذلك : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

ويصح أن يكون المعنى : أنزلنا المطر من السماء فجعلناه لسقياكم . وأنتم لستم بقادرين على خزنه وحفظه في الآبار والعيون وغيرها ، وإنما نحن القادرون على ذلك قال - تعالى - « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون » (٣) .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٣٨ لسماحة الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) سورة النحل الآيتان ١٠ ، ١١

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٨

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الإحياء والإماتة بيده وحده، فقال ـ تعالى ـ : « وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » .

أي : وإنا وحدنا القادرون على إيجاد الحياة في المخلوقات، والقادرون على سلبها عنها، ونحن الوارثون لهذا الكون بعد فنائه، الباقون بعد زواله .

قال ـ تعالى ـ « إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير »[1] .

وقال ـ تعالى ـ « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون »[2] .

وشبه ـ سبحانه ـ بقاءه بعد زوال كل شيء سواه بالوارث، لأن الوارث هو الذي يرث غيره بعد موته .

وأكد ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بإن واللام وضمير الفصل « نحن » تحقيقا للخبر الذي اشتملت عليه، وردا على المشركين الذين زعموا أنه لا حياة ولا ثواب ولا عقاب بعد الموت :

ثم أكد ـ سبحانه ـ شمول علمه لكل شيء بعد أن أكد شمول قدرته فقال ـ تعالى ـ : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » .

والمراد بالمستقدمين من تقدم على غيره ولادة وموتا، كما أن المراد بالمستأخرين من تأخر عن غيره في ذلك، ولم يمت بعد، أو لم يوجد بعد في عالم الأحياء .

والسين والتاء في اللفظين للتأكيد .

وقيل : المراد بهما الأحياء والأموات، وقيل المراد بالمستقدمين : من تقدم في الوجود على الأمة الإسلامية، وبالمستأخرين : الأمة الاسلامية .

---

(١) سورة ق الآية ٤٣ .
(٢) سورة مريم الآية ٤٠

وقيل : المراد بهما : من قتل فى الجهاد ومن لم يقتل ، وقيل المراد بهما من تقدم فى صفوف الصلاة ومن تأخر ...

قال الامام ابن جرير بعد أن ساق جملة من الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال عندى بالصحة ، قول من قال : ولقد علمنا الأموات منكم يا بنى آدم فتقدم موته ، ولقد علمنا المستأخرين الذين تأخر موتهم ممن هو حى ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد ... »[1]

ثم بين - سبحانه - أن مرجع الخلق جميعا إليه فقال : « وإن ربك هو يحشرهم ، إنه حكيم عليم » .

أى : وإن ربك - وحده - أيها المخاطب - هو الذى يتولى حشر الأولين والآخرين ، وجمعهم يوم القيامة للحساب والثواب والعقاب ، إنه - سبحانه - « حكيم » فى كل تصرفاته وأفعاله « عليم » بأحوال خلقه ما ظهر منها وما بطن .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد اشتملت على ألوان من الأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وشمول علمه ، مما يوجب الايمان به - سبحانه - وإخلاص العبادة له ، ومقابلة نعمه بالشكران لا بالكفران ، وبالطاعة لا بالمعصية ...

وبعد أن ساق - سبحانه - ألوانا من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق خلقه للسماء وما فيها من بروج وشهب .. وللأرض وما عليها من جبال ونبات .. وللرياح وما تحمله من سحب وأمطار ...

أتبع ذلك بأدلة أخرى على كمال ذاته وصفاته عن طريق خلقه للانسان وللجن وللملائكة .. فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٢٦ .

« ولقدْ خلقْنَا الإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مسنُونٍ (٢٦) والجانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قبلُ من نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إنِّى خالقٌ بشراً من صَلْصالٍ من حَمَإٍ مسنُونٍ (٢٨) فإذَا سويتُه ونفختُ فيه من رُوحِى فقعُوا له ساجدينَ (٢٩) فَسجَدَ الملائكةُ كلُّهم أجمعُونَ (٣٠) إلاَّ إبليسَ أبَى أن يكونَ مع الساجدينَ (٣١) قالَ يا إبليسُ مالكَ ألاَّ تكونَ مع الساجدين (٣٢) قالَ لم أكُنْ لأسجُدَ لبشرٍ خلقتَه من صلصالٍ من حَمَإٍ مَسْنونٍ (٣٣) قالَ فاخرُج مِنْهاَ فإنَّك رجيمٌ (٣٤) وإنَّ عليكَ اللعنـــةَ إلى يومِ الدينِ (٣٥) قالَ ربِّ فأنظِرْنِى إلى يوم يُبعثُونَ (٣٦) قالَ فإنَّكَ مِنَ المنظرينَ (٣٧) إلى يومِ الوقتِ المعلومِ (٣٨) قالَ ربِّ بِمَا أغْوَيتَنِي لأزَيِّنَنَّ لهم فى الأرضِ ولأغْوِينَّهم أجمعينَ (٣٩) إلاَّ عبادَكَ منهم المخلَصِين (٤٠) قالَ هذا صراطٌ علىَّ مستقيمٌ (٤١) إنَّ عبادِى ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ إلاَّ مَنِ اتبَعكَ من الغاوينَ (٤٢) وإنَّ جهنَّم لموعدُهم أجمعينَ (٤٣) لهــا سبعةُ أبوابٍ لــكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ (٤٤) » .

والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه - « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال » آدم - عليه السلام - لأنه أصل النوع الإنسانى ، وأول فرد من أفراده .

والصلصال : الطين اليابس الذى يصلصل ، أى : يحدث صوتا إذا حرك أو نقر عليه ، كما يحدث الفخار قال - تعالى - « خلق الإنسان من صلصال كالفخـــار » .

وقيل : الصلصال : الطين المنتن، مأخوذ من قولهم : صَلَّ اللحم وأصلّ، إذا أنتن ..

قال الإمام ابن جرير : والذى هو أولى بتأويل الآية ، أن يكون الصلصال فى هذا الموضع ، الطين اليابس الذى لم تصبه النار ، فإذا نقرته صل فسمعت له صلصلة ـ وذلك أن الله ـ تعالى ـ وصفه فى موضع آخر فقال : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » فشبهه ـ تعالى ذكره ـ بأنه كالفخار فى يبسه ، ولو كان معناه فى ذلك المنتن لم يشبهه بالفخار ، لأن الفخار ليس بمنتن فيشبه به فى النتن غيره »[1] .

والحمأ : الطين إذا اشتد سواده وتغيرت رائحته .

والمسنون : المصور من سنّ الشىء إذا صوره .

قال الآلوسى ماملخصه : قوله « من حمأ » أى : من طين تغير واسود من مجاورة الماء . ويقال الواحدة حمأة ـ بسكون الميم ـ ...

وقوله « مسنون » أى . مصور من سُنَّة الوجه وهى صورته . وأنشد لذلك ابن عباس قول عمه حمزة يمدح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

أغرُّ كأن البدرَ سنّةُ وجهه جلا الغيم عنه ضوؤه فتبددا

وقيل مسنون : أى مصبوب من سنّ الماء بمعنى صبه . ويقال شنّ ـ بالشين أيضا ـ ، أى : مفرغ على هيئة الإنسان ... وقيل : المسنون : المنتن ...»[2]

والذى يتدبر القرآن الكريم يرى أن الله ـ تعالى ـ قد وضح فى آيات متعددة أطوار خلق آدم ـ عليه السلام ـ ، فقد بين فى بعض الآيات أنه خلقه من تراب ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ... »[3]

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٨

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٣١ (٣) سورة آل عمران الآية ٥٩

وبين فى آيات أخرى أنه ـ سبحانه ـ خلقه من طين ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين »[1] .

وبين هنا أنه ـ سبحانه ـ خلقه « من صلصال من حمأ مسنون » .

قال الجمل : وهذا الطور آخر أطوار آدم الطينية . وأول ابتدائه أنه كان ترابا متفرق الأجزاء ، ثم بل ـ أى التراب ـ فصار طينا ، ثم ترك حتى أنتن واسود فصار حمأ مسنونا .

اى : متغيرا ، ثم يبس فصار صلصالا ، وعلى هذه الأحوال والأطوار تتخرج الآيات الواردة فى أطواره الطينية ، كآية خلقه من تراب ، وآية « بشرا من طين » وهذه الآية التى نحن فيها »[2] .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة التنبيه على عجيب صنع الله ـ تعالى ـ وعظيم قدرته ، حيث أخرج ـ سبحانه ـ من هذه المواد بشرا سويا ، فى أحسن تقويم .

وأكد ـ سبحانه ـ الجملة الكريمة بلام القسم وقد ، لزيادة التحقيق ، وللإرشاد إلى أهمية هذا الخلق ، وأنه بهذه الصفة .

و « من » فى قوله « من صلصال » لابتداء الغاية أو للتبعيض ، وفى قوله « من حمأ » ابتدائية .

والجار والمجرور صفة لصلصال أى : من صلصال كائن من حمأ ، ومسنون صفة لحمأ .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك المادة التى خلق منها الجان فقال ـ سبحانه ـ : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » .

---

(١) سورة السجدة الآية ٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٤٣ .

والمراد بالجان هنا : أبو الجن عند جمهور المفسرين . وقيل هو إبليس . وقيل هو اسم لجنس الجن .

وسمى جانا لتواريه عن الأعين ، واستتاره عن بنى آدم .

أى : والجان خلقناه « من قبل » أى : من قبل خلق آدم « من نار السموم » أى : من الريح الحارة التى تقتل . وسميت سموما ، لأنها لشدة حرارتها ، وقوة تأثيرها تنفذ فى مسام البدن .

قال ابن كثير : وقد ورد فى الحديث الصحيح : خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق بنو آدم مما وصف لكم »[1]

ثم حكى — سبحانه — ما أمر به ملائكته عندما توجهت إرادته — سبحانه — لخلق آدم ، فقال — تعالى — : « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » .

أى : واذكر — أيها العاقل — وقت أن قال ربك — سبحانه — للملائكة — الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون — « إنى خالق » بقدرتى « بشرا » أى : إنسانا ، وعبر عنه بذلك اعتبارا بظهور بشرته وهى ظاهر الجلد « من صلصال من حمأ مسنون » .

« فإذا سويته » أى : سويت خلق هذا البشر ، وكملت أجزاءه ، وجعلته فى أحسن تقويم ...

« ونفخت فيه من روحى » أى : وضعت فيه ما به حياته وحركته وهو الروح ، الذى لا يعلم حقيقته أحد سواى .

قال القرطبى : قوله : « ونفخت فيه من روحى » النفخ إجراء الريح فى الشىء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥١ .

ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه ـ سبحانه ـ إلى نفسه تشريفا وتكريما ، كقوله ، أرضى وسمائى وبيتى وناقة الله وشهد الله ... »[1]

وقوله « فقعوا له ساجدين » أمر منه ـ سبحانه ـ للملائكة بالسجود لآدم .

أى : فإذا سويت خلقه ، وأفضت عليه ما به حياته ، فاسقطوا وخروا له ساجدين ، سجود تحية وتكريم ، لا سجود عبادة ، فإن سجود العبادة لى وحدى .

وقال ـ سبحانه ـ « فقعوا .. » بفاء التعقيب ، للاشعار بأن سجودهم له واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير إبطاء أو تأخير .

وهذا نوع من تكريم الله ـ تعالى ـ لعبده آدم ـ عليه السلام ـ ، وله ـ سبحانه ـ أن يكرم بعض عباده بما شاء ، وكيف شاء .. « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان من الملائكة بعد ذلك فقال : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » أى : امتثل الملائكة لأمر الله بعد أن خلق ـ سبحانه ـ آدم وسواه ونفخ فيه من روحه ، فسجدوا له كلهم أجمعون دون أن يتخلف منهم أحد .

وجمع ـ سبحانه ـ بين لفظى التوكيد « كلهم أجمعون » للمبالغة فى ذلك ، ولإزالة أى التباس بأن أحدا شذ عن طاعة الله ـ تعالى ـ .

وقوله « إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين » بيان لموقف إبليس من أمر الله ـ تعالى ـ .

وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس ، وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمى ، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة . وهو كائن حى ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٢٥ .

فى النفوس ، لأنه ليس من المعقول أن يكون الأمر كذلك ، مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه .

قال ـ تعالى ـ « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ... »(١)

وقوله « أبى » من الإباء وهو الامتناع عن فعل الشيء مع القدرة على فعله، بسبب الغرور والتكبر والتعاظم .

أى : فسجد الملائكة كلهم أجمعون، امتثالا وطاعة لله ـ تعالى ـ ، إلا إبليس فإنه إمتنع عن أن يكون مع الساجدين . تكبرا وغرورا وعصيانا لأمر الله ـ تعالى ـ .

وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أم لا قولان :

أحدهما : أنه كان منهم ، لأنه ـ سبحانه ـ أمرهم بالسجود لآدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لما كان عاصيا ، ولما استحق الطرد واللعنة ، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه ، حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه . وعلى هذا الرأى الذى اختاره ابن عباس وابن مسعود وغيرهما يكون الاستثناء متصلا .

والثانى : أنه لم يكن من الملائكة ، لقوله ـ تعالى ـ « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه .. »(٢) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية . والملائكة لا ذرية لهم ..

وعلى هذا الرأى الذى اختاره الحسن وقتادة وغيرهما يكون الاستثناء منقطعا .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٧ (٢) سورة الكهف الآية ٥٠

قال الشيخ القاسمي : « وقد حاول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن يجمع بين الرأيين فقال : والصواب التفصيل فى هذه المسألة ، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله فإن أصله من نار وأصل الملائكة من نور، فالنا فى كونه من الملائكة والمثبت كونه منهم لم يتواردا على محل واحد »(١) .

والذى نميل إليه فى هذه المسألة أن إبليس لم يكن من الملائكة ، بدليل الحديث الصحيح الذى يقول فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق بنو آدم مما وصف لكم »(٢) والآية الكريمة ـ وهى قوله ـ تعالى ـ « إلا إبليس كان من الجن ـ صريحة فى أنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة .

ومع هذا فإن الأمر بالسجود يشمله ، بدليل قوله ـ تعالى ـ « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك . . . »(٣)

فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الله ـ تعالى ـ قد أمر إبليس بالسجود لآدم . . .

ووجود إبليس مع الملائكة لا يستلزم أن يكون منهم ، ومثل ذلك كمثل أن تقول : حضر بنو فلان إلا محمد ، ومحمد ليس من بنى فلان هؤلاء ، وإنما هو معهم بالمجاورة أو المصاحبة أو غير ذلك .

هذا ما نختاره ونميل إليه ، إستنادا إلى ظاهر الآيات وظاهر الأحاديث ، والله ـ تعالى ـ أعلم .

وقوله ـ سبحانه ـ : « قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ١٠٤ .
(٢) صحيح مسلم « كتاب الزهد » باب « فى أحاديث متفرقة » جـ ٨ ص ٢٢٧
(٣) سورة الأعراف الآية ١٢ .

قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، بيان لما وبخ الله - تعالى - به إبليس ، ولرد إبليس - لعنة الله - على خالقه - عز وجل - .

أي : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التوبيخ والزجر : أى سبب حملك على مخالفة أمرى ، وجعلك تمتنع عن السجود لمن أمرتك بالسجود له ؟

فكان رد إبليس : ما كان ليليق بشأنى ومنزلتى أن أسجد مع الساجدين لبشر خلقته - أيها الخالق العظيم - من صلصال من حمأ مسنون .

ومقصود إبليس بهذا الرد إثبات أنه خير من آدم ، كما حكى عنه - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - « قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين »[1].

وهذا الرد منه يدل على عصيانه لأمر ربه ، وعدم الرضا بحكمه ، وسوء أدبه مع خالقه - سبحانه - .

قال الآلوسى : وقد أخطأ اللعين حيث ظن أن الفضل كله باعتبار المادة ، وما درى أنه يكون باعتبار الفاعل ، وباعتبار الصورة ، وباعتبار الغاية ، بل إن ملاك الفضل والكمال هو التخلى عن الملكات الردية ، والتحلى بالمعارف الربانية .

فشمال والكأس فيها يمين ويمين لا كأس فيها شمال[2]

وقوله - سبحانه - : « قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين » بيان للحكم العادل الذى أصدره الله - تعالى - على إبليس .

والضمير فى قوله « منها » يعود إلى السماء لأنها مسكن الطائعين الأخيار ، أو إلى الجنة لأنها لا يسكنها إلا من أطاع الله - تعالى - ، أو إلى المنزلة التى كان فيها قبل طرده من رحمة الله .

---

(١) سورة ص الآية ٧٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٣ .

أي : قال الله ـ تعالى ـ لإبليس على سبيل الزجر والتحقير : فاخرج من جنتي ومن سمائي فإنك « رجيم » مطرود من كل خير وكرامة ، وإن عليك اللعنة والإبعاد من رحمتي إلى يوم الدين ، وهو يوم الحساب والجزاء .

وليس المراد أن تنقطع عنه اللعنة يوم الدين ، بل المراد أن هذه اللعنة مستمرة عليه إلى يوم الدين ، فإذا ماجاء هذا اليوم أستمرت هذه اللعنة ، وأضيف إليها العذاب الدائم المستمر الباقي ، بسبب عصيانه لأمر ربه ، فذكر يوم الدين ، إنما هو للمبالغة في طول مدة هذه اللعنة ودوامها مادامت الحياة الدنيا .

وعبر ـ سبحانه ـ بعلى في قوله « وإن عليك اللعنة » للاشعار بتمكنها منه ، واستعلائها عليه ، حتى لكأن اللعنة فوقه يحملها دون أن تفارقه في لحظة من اللحظات .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ماطلبه إبليس من ربه ، ومارد الله به عليه ، فقال ـ تعالى ـ : قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » .

والفاء في قوله « فأنظرني » للتفريع وهي متعلقة بمحذوف يدل عليه سياق الكلام .

والإنظار : التأخير والإمهال ومنه قوله ـ تعالى ـ : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » . . .

أي : قال إبليس لربه ـ عز وجل » : مادمت قد أخرجتني من جنتك ومن سمائك ، وجعلتني مرجوما ملعونا إلى يوم الدين ، فأخرني إلى يوم يبعث آدم وذريته للحساب وخاطب الله ـ تعالى ـ بصفة الربوبية تخضعا وتذللا لكي يجاب طلبه .

وقد أجاب الله ـ تعالى ـ له طلبه فقال : « فإنك » يا إبليس من جملة « المنظرين »

أى الذين أخرت موتهم « إلى يوم الوقت المعلوم » وهو يوم القيامة الذى استأثرت بعلم وقته ، والذى وصفت أحواله للناس كى يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح .

ويصح أن يكون المراد بالوقت المعلوم : وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق ويموت هو معهم .

قال ابن كثير : اجابه الله ـ تعالى ـ إلى ماسأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لاتخالف . ولا مانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

وقال بعض العلماء: وهذا الإنظار رمز إلهى على أن ناموس الشر لا ينقضى من عالم الحياة الدنيا ، وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر ، وبين الأخيار والأشرار .

قال ـ تعالى ـ : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» .

ولذلك لم يستغن نظام العالم عن إقامة قوانين العدل والصلاح ، وإيداعها إلى الكفاة لتنفيذها والذود عنها »[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التى حملت إبليس على طلب تأخير موته إلى يوم القيامة ، والتى من أهمها الانتقام من آدم وذريته فقال ـ تعالى ـ : « قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » .

والباء فى قوله « بما أغويتنى لأزينن لهم ... » للسببية أو للقسم .

قال الإمام الرازى ماملخصه : الباء ههنا بمعنى السبب ، أى : بسبب كونى غاويا لأزينن لهم ، لقول القائل : أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار ، وبطاعته ليدخلن الجنة .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٤٩

أو للقسم ومامصدرية . وجواب القسم لأزينن لهم. والمعنى أقسم بإغوائك لى لأزينن لهم . ونظيره قوله ـ تعالى ـ « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين »[1].

وقوله « أغويتنى » من الإغواء ، وهو خلق الغى فى القلوب . وأصل الغى الفساد ، ومنه غوى الفصيل ـ كرضى ـ إذا بشم من اللبن فسدت معدته . أو منع من الرضاع فهزل وكاد يهلك ، ثم استعمل فى الضلال . يقال : غوى فلان يغوى غيا وغواية فهو غاو إذا ضل عن الطريق المستقيم . وأغواه غيره وغواه : أضله .

وقوله « لأزينن لهم » من التزيين بمعنى التحسين والتجميل ، وهو تصيير الشىء زينا أى : حسنا حتى ترغب النفوس فيه وتقبل عليه .

والضمير فى « لهم » يعود على ذرية آدم ، وهو مفهوم من السياق وإن لم يجر لهم ذكر ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله ـ تعالى ـ فى آية أخرى : « قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا »[2].

وحذف مفعول « لأزينن » لدلالة المقام عليه .

أى : لأزينن لهم المعاصى والسيئات ، بأن أحسن لهم القبيح . وأزين لهم المنكر . وأحبب الشهوات إلى نفوسهم حتى يتبعوها ، وأبذل نهاية جهدى فى صرفهم عن طاعتك . . . وقال ـ سبحانه ـ « فى الأرض » لتحديد مكان إغوائه ، إذ هى المكان الذى صار مستقرا له ولآدم وذريته ، كما قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى : « فأزلهما الشيطان عنها ـ أى الجنة ـ فأخرجهما ـ أى آدم وحواء ـ مما كانا فيه ، وقلنا أهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »[3] .

وقوله « ولأغوينهم أجمعين » مؤكد لما قبله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٦ ص ١٨٥

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٢ (٣) سورة البقرة الآية ٣٦ .

أى : والله لأغوينهم جميعا مادمت قادرا على ذلك ، ولأعملن على إضلالهم بدون فتور أو يأس ، كما قال — تعالى — فى آية أخرى : « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين »[1] .

قال القرطبى : وروى ابن لهيعة عبد الله عن دراج أبى السمح ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

وقوله — سبحانه — « إلا عبادك منهم المخلصين » إعتراف من إبليس بأن من عباد الله — تعالى — قوما لا يستطيع أن يغويهم ، ولا يقدر على إضلالهم .

وكلمة « المخلصين » قرأها نافع وحمزة وعاصم والكسائى — بفتح اللام — ، فيكون المعنى : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك الذين استخلصتهم لطاعتك ، وصنتهم عن اقتراف مانهيتهم عنه ...

وقرأها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو — بكسر اللام — ، فيكون المعنى : لأضلنهم جميعا ، إلا عبادك الذين أخلصوا لك العمل ، وابتعدوا عن الرياء فى أقوالهم وأفعالهم .

وهذا الاستثناء الذى اعترف به إبليس بعد أن أدرك أنه لامحيص له عنه — هو سنة الله — تعالى — فى خلقه ، فقد جرت سنته التى لا تغيير ولا تبديل لها ، بأن يستخلص لذاته من يخلص له قلبه ، وأن يرعى من يرعى حدوده ، ويحفظ من يحفظ تكاليفه ، ولذا كان جوابه — سبحانه — على إبليس ، هو قوله — تعالى — : « قال هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧

واسم الاشارة « هذا » يعود إلى الاستثناء السابق وهو قوله « إلا عبادك منهم المخلصين » .

وقد اختار هذا الرأى الإمام الآلوسى فقال : «قال » الله ـ تعالى ـ « هذا صراط على » أى : حق لابد أن أراعيه « مستقيم » لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره .

والإشارة إلى ماتضمنه الاستثناء وهو تخليص المخلصين من إغوائه وكلمة على تستعمل فى الوجوب . والمعتزلة يقولون به حقيقة لقولهم بوجوب الأصلح عليه ـ تعالى ـ .

وقال أهل السنة ، إن ذلك وإن كان تفضلا منه ـ سبحانه ـ إلا أنه شبه بالحق الواجب لتأكد ثبوته وتحقق وقوعه ، بمقتضى وعده ـ عز وجل ـ فجىء بعلى لذلك » .

ثم قال : وقرأ الضحاك ومجاهد ويعقوب . « هذا صراط عَلِيٌّ » ـ بكسر اللام وضم الياء وتنوينها ـ أى : عال لارتفاع شأنه »[1] .

وقد اختار صاحب الكشاف عودة اسم الإشارة إلى مابعده فقال: قال الله ـ تعالى ـ : « هذا صراط على مستقيم » أى هذا طريق حق على أن أراعيه ، وهو أن يكون لك سلطان على عبادى ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته»[2] .

ويرى ابن جرير أن على هنا بمعنى إلى ، فقد قال ـ رحمه الله ـ قوله ـ تعالى ـ « هذا صراط على مستقيم » بمعنى هذا طريق إلى مستقيم .

فكان معنى الكلام : هذا طريق رجعه إلى ، فأجازى كلا بأعمالهم ، كما قال ـ تعالى ـ « إن ربك لبالمرصاد » ، وذلك نظير قول القائل لمن يتوعده و يتهدده : طريقك على وأنا على طريقك ، فكذلك قوله « هذا صراط » معناه : هـــذا طريق على وهذا طريق إلى ... »[3]

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ١٤ ص ٤٩

(٢) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٣٩١ (٣) تفسير ابن جرير حـ ١٤ ص ٣٣

ويبدو لنا أن الآيه الكريمة مسوقة لبيان المنهاج القويم الذى كتبه الله – تعالى – على نفسه فضلا منه وكرما ، والميزان العادل الذى وضعه - سبحانه - لتمييز الخبيث من الطيب .

فكأنه - سبحانه - يقول فى الرد على إبليس الذى اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من عباد الله : يا إبليس ، إن عدم قدرتك على إغواء عبادى المخلصين منهج قويم من مناهجى التى اقتضتها حكمتى وعدالتى ورحمتى ، وسنة من سننى التى آليت على نفسى أن ألتزم بها مع خلقى . إن عبادى المخلصين لا قوة ولا قدرة لك على إغوائهم ، لأنهم حتى إذا مسهم طائف منك . أسرعوا بالتوبة الصادقة إلى ، فقبلتها منهم ، وغفرت لهم زلتهم . . . ولكنك تستطيع إغواء أتباعك الذين استحوذت عليهم ، فانقادوا لك . . .

وفى هاتين الآيتين مافيهما من التنويه بشأن عباد الله المخلصين ، ومن المديح لهم بقوة الإيمان ، وعلو المنزلة ، وصدق العزيمة ، وضبط النفس . . .

قال – تعالى – : «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا»(١) .

قال الآلوسى «وقوله : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . . . أى تصرف وتسلط ، والمراد بالعباد ، المشار إليهم بالمخلصين ، فالإضافة للعهد والاستثناء على هذا فى قوله «إلا من اتبعك من الغاوين » منقطع .

واختار هذا غير واحد . . . وجوز أن يكون بالعباد العموم والاستثناء متصل ، والكلام كالتقرير لقوله إلا عبادك منهم المخلصين ، ولذا لم يعطف على ما قبله ، وتغيير الوضع لتعظيم المخلصين ، بجعلهم هم الباقين بعد الاستثناء . . . »(٢)

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المتبعين لإبليس فقال : «« إن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » » .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٥ (٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٧

والضمير فى قوله «لموعدهم» يعود إلى الغاوين، أو إلى «من اتبعك» والموعد: مكان الوعد.

والمراد به هنا المكان الذى سينتهون إليه حتما بعد أن كانوا غافلين عنها فى الدنيا، وهو جهنم أى وإن جهنم لمكان محتوم لهؤلاء الذين أغواهم إبليس دون أن يفلت أحد من سعيرها.

وجملة «لها سبعة أبواب» مستأنفة لوصف حال جهنم وأبوابها.

وجملة «لكل باب منهم جزء مقسوم» صفة لأبواب، وضمير «منهم» يعود إلى الغاوين أتباع إبليس.

والمقسوم: من القسم وهو إفراز النصيب عن غيره تقول: قسمت كذا قسما وقسمة إذا ميزت كل قسم عن سواه.

والمعنى: إن لجهنم سبعة أبواب، لكل باب منها، فريق معين من الغاوين يدخلون منه، على حسب تفاوتهم فى الغواية وفى متابعة إبليس ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالأبواب هنا الأطباق والدركات.

أى لجهنم سبعة أطباق أو دركات بعضها فوق بعض، ينزلها الغاوون، بحسب أصنافهم وتفاوت مراتبهم فى الغى والضلال.

قال الامام ابن كثير: قوله — تعالى — «لكل باب منهم جزء مقسوم» أى: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس، يدخلونه لا محيد لهم عنه — أجارنا الله منها — وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر فى درك بقدر فعله .... ثم قال: وعن سمرة بن جندب — رضى الله عنه — عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله «لكل باب منهم جزء مقسوم» قال إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته[1]، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه ...»[2].

---

(١) الحجزة — بضم الحاء وسكون الجيم — معقد الازار

(٢) تفسير ابن كثير حـ ٤ ص ٤٥٥

وبعد : فهذه قصة خلق الإنسان، وقصة خلق الجان - كما بينها هذه السورة الكريمة - ومن الدروس والعظات التى نأخذها منها :

١ — دلالتها على كمال قدرة الله - تعالى - ، وبديع خلقه ، وبليغ حكمته ، حيث خلق - سبحانه - الإنسان من مادة تختلف عن المادة التى خلق منها الجان ، وحيث كرم الإنسان بخاصية أخرى أشار إليها القرآن فى قوله - تعالى - « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى . . . »

وهذه الخاصية هى التى تجعل من هذا الإنسان ، إنسانا ينفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى التى تشاركه فى هذه الحياة . .

٢ — أن خلق الجان سابق على خلق الإنسان ، بدليل قوله - تعالى - : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » .

٣ — أن الملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فهم بمجرد أن أمرهم الله - تعالى - بالسجود لآدم ، سجدوا جميعا دون أن يشذ منهم أحد .

٤ — أن الإصرار على معصية الله - تعالى - ، يؤدى إلى الطرد من رحمته - سبحانه - ، ومن الخروج من رضوانه ومغفرته .

٥ — أن التكبر والغرور والحسد ، من أبرز الصفات الذميمة التى حملت إبليس على الامتناع عن السجود لآدم ، وعلى مخالفة أمر ربه - عز وجل - .

٦ — أن إجابته - سبحانه - لطلب إبليس فى تأخير موته ، لم يكن لكرامة له عنده - عز وجل - ، وإنما كان استدراجا له وإمهالا ، وابتلاء لبنى آدم ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

٧ — أن العداوة بين إبليس وقبيله ، وبين آدم وذريته ، باقية إلى أن يرث

الله الأرض ومن عليها ، وأن إبليس وجنوده لم لن يتركوا بابا من أبواب الشر إلا وزينوه وجملوه لبنى آدم ، وحرضوهم على الدخول فيه ، ليكتسبوا السيئات التى نهاهم الله — تعالى — عنها .

قال — تعالى — « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

٨ — أن عدالة الله — تعالى — ورحمته قد اقتضت أن يحمى عباده المخلصين من تسلط الشيطان عليهم ، لأنهم منه فى حمى ، ولأن مداخله إلى نفوسهم مغلقة ، إذ أنهم خافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ...

أما الذين يستطيع الشيطان التسلط عليهم ، والتأثير فيهم ، فهم أولئك الذين انقادوا لوساوسه ، واستجابوا لنزغاته ، وصاروا دمية له يسخرها كما يشاء ...

وهؤلاء الذين تنتظرهم جهنم بأبوابها السبعة ...

قال — تعالى — : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » .

هذه هى عاقبة الغاوين أتباع إبليس ، أما عاقبة المخلصين الذين أخلصوا نفوسهم لله — تعالى — وأطاعوه فى السر والعلن ، فقد بينها — سبحانه — بعد ذلك فى قوله :

إنَّ المتقينَ فى جنَّاتٍ وعُيونٍ (٤٥) ادخلُوهَا بسلامٍ آمنينَ (٤٦) ونزَعْنَا مافى صُدورِهِم من غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتقَابلينَ (٤٧) لا يمسُّهمْ فيها نَصبٌ ومَا هُم مِنْهَا بِمُخرَجينَ (٤٨) .

وقوله — سبحانه — « إن المتقين ... » كلام مستأنف لإظهار حسن عاقبة المتقين ، بعد بيان سوء عاقبة الغاوين .

والمتقون : جمع متق اسم فاعل من اتقى . وأصله أوتقى - بزنه افتعل - من وقى الشيء وقاية ، أي : صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه .

والجنات : جمع جنة ، وهي كل بستان ذي شجر متكاثف ، ملتف الأغصان ، يظلل ماتحته ويستره . من الجن وهو ستر الشيء عن الحاسة ..

والمراد بها هنا الدار التي أعدها الله - تعالى - لتكريم عباده المؤمنين في الآخرة .

والعيون جمع عين . والمقصود بها هنا المياه المنتشرة في الجنات .

والمعنى : « إن المتقين » الذين صانوا أنفسهم عن الشرك . وقالوا ربنا الله ثم استقاموا « جنات » عالية ، فيها ماتشتهيه الأنفس ، وفيها منابع الماء تلذها الأعين .

وجملة « ادخلوها بسلام آمنين » معمولة لقول محذوف . والباء في قوله « بسلام » المصاحبة .

أي : وتقول لهم الملائكة - على سبيل التكريم - والتحية - عند دخولهم الجنات واستقرارهم فيها : ادخلوها - أيها المتقون - تصاحبكم السلامة من الآفات ، والنجاة من المخافات .

ثم بين - سبحانه - ماهم عليه في الجنة من صفاء نفسي ، ونقاء قلبي . فقال : « ونزعنا مافي صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » .

والنزع : القلع يقال : نزع فلان هذا الشيء من مكانه إذا قلعه منه ، وفعله من باب ضرب والغل : الحقد والضغينة ، وأصله من الغلالة ، وهي مايلبس بين الثوبين : الشعار والدثار .

أو من الغلل وهو الماء المتخلل بين الأشجار . ويقال : غل صدر فلان يغل - بالكسر - غلا إذا كان ذا غش ، أوضغن ، أي حقد .

والسرر : جمع سرير وهو المكان المهيأ لراحة الجالس عليه وإدخال السرور على قلبه .

أى : وقلعنا مافى صدور هؤلاء المتقين من ضغائن وعداوات كانت موجودة فيها فى الدنيا ، وجعلناهم يدخلون الجنة إخوانا متحابين متصافين ، ويجلسون متقابلين ، على سرر مهيئة لراحتهم ورفاهيتهم وإدخال السرور على نفوسهم .

وقوله : « إخوانا على سرر متقابلين » حال من فاعل « ادخلوها » .

وعبر بقوله « متقابلين » لأن مقابلة الوجه للوجه أدخل فى الإيناس وأجمع للقلوب .

والآية الكريمة تشعر بأنهم فى الجنة ينشئهم الله — تعالى — نشأة أخرى جديدة ، تكون قلوبهم فيها خالية من كل ما كان يخالطها فى الدنيا من ضغائن وعداوات وأحقاد وأطماع وغير ذلك من الصفات الذميمة ، ويصلون بسبب هذه النشأة الجديدة إلى منتهى الرقى البشرى . . .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث والآثار منها مارواه القاسم عن أبى أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على مافى صدورهم الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله مافى صدورهم فى الدنيا من غل ، ثم قرأ : « ونزعنا مافى صدورهم من غل ... »

ومنها : مارواه أبو مالك الأشجعى عن أبى حبيبة — مولى لطلحة — قال : دخل عمران بن طلحة على الإمام على بن أبى طالب بعد مافرغ من أصحاب الجمل ، فرحب على — رضى الله عنه — به ، وقال : إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك من الذين قال الله فيهم : « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ... »[1]

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٦ وابن جرير ج ١٤ ص ٣٦ .

ثم ختم ـ سبحانه ـ بيان جزائهم بقوله : « لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » .

والنصب : التعب والإعياء . يقال : نصب الرجل نصبا ـ من باب طرب ـ إذا نزل به التعب والهم . ويقال فلان فى عيش ناصب ، أى فيه كد وجهد .

قال ابن كثير قوله ـ تعالى ـ : « لا يمسهم فيها نصب » يعنى مشقة وأذى كما جاء فى الصحيحين ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

وقوله « وما هم منها بمخرجين » ـ بل هم باقون فى الجنات بقاء سرمديا دائما لا ينقطع ـ كما جاء فى الحديث : يقال ـ لأهل الجنة ـ يا أهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا[1] .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على بشارات للمؤمنين الصادقين ، هذه البشارات مقرونة بالتعظيم ، خالية من الشوائب والأضرار ، باقية لا انقطاع لها .

أما البشارات فتراها فى قوله ـ تعالى ـ « إن المتقين فى جنات وعيون » .

وأما اقترانها بالتعظيم والتكريم ، فتراه فى قوله ـ تعالى ـ : « ادخلوها بسلام آمنين » .

وأما خلوها من الشوائب والأضرار ، فتراه فى قوله ـ تعالى ـ : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا ... » .

وأما بقاؤها واستمرارها ، فتراه فى قوله ـ تعالى ـ : « وما هم منها بمخرجين » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٥٨ .

هذا، وشبيه بهذه الآيات قوله-تعالى- : « إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين .. »[١] .

وقوله- تعالى- « ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . »[٢]

وقوله- تعالى- : « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب »[٣] .

وقوله- تعالى- : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا »[٤] .

ثم بين- سبحانه- نماذج لمن شملتهم رحمته لإيمانهم وعملهم الصالح، ولمن شملتهم نقمته لكفرهم وعملهم الطالح، ومن هذه النماذج تبشيره لإبراهيم- وهو شيخ كبير- بغلام عليم، وإنجاؤه للوط ومن آمن معه من العذاب المهين، وإهلاكه المجرمين من قومه .. قال- تعالى- :

« نَبِّئْ عبادِى أنى أنا الغفورُ الرحيمُ (٤٩) وأنّ عذابِى هو العذابُ الأليمُ (٥٠) ونبِّئْهُم عن ضَيفِ إبراهيمَ (٥١) إذ دخلُوا عليه فقالُوا سلاماً، قالَ إنّا منكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قالُوا لا توْجَلْ إنَّا نبشِّرُكَ بغلامٍ عليمٍ (٥٣) قال أَبشّرْتمُونى عَلَى أَنْ مسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تبشِّرُونِ (٥٤) قالُوا بشَّرنَاكَ بالحقِّ فلاَ تكُنْ من القانِطِينَ (٥٥) قالَ ومَن يقنطُ من

(١) سورة الذاريات الآيتان ١٥، ١٦ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٤٣ .
(٣) سورة فاطر الآيتان ٣٤، ٣٥ .
(٤) سورة الكهف الآيتان ١٠٧، ١٠٨ .

رحمة ربه إلا الضالون (٥٦) قال فى خطبكم أيها المرسلون (٥٧) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٥٨) إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين (٥٩) إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين (٦٠) .

والخطاب فى قوله ـ تعالى ـ . « نبئ عبادى » . . للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . والنبأ : الخبر العظيم .

والمراد « بعبادى » : المؤمنون منهم ، والإضافة للتشريف .

اى : أخبر ـ أيها الرسول الكريم ـ عبادى المؤمنين أنى أنا الله ـ تعالى ـ الكثير المغفرة لذنوبهم ، الواسع الرحمة لمسيئهم ، وأخبرهم ـ أيضا ـ أن عذابى هو العذاب الشديد الإيلام ، فعليهم أن يقدموا القول الطيب ، والعمل الصالح ، لكى يظفروا بمغفرتى ورحمتى ، وينجو من عذابى ونقمتى .

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد جمع فى هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته ـ سبحانه ـ فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ما كلفه ـ سبحانه ـ به .

وقدم ـ سبحانه ـ نبأ الغفران والرحمة ، على نبأ العذاب والانتقام ، جريا على الأصل الذى ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمتـــه سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه .

والضمير « أنا وهو » فى الآيتين الكريمتين ، للفصل ؛ لإفادة تأكيد الخبر .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى الآيتين لطائف :

إحداها : أنه أضاف ـ سبحانه ـ العباد إلى نفسه بقوله « عبادى » ، وهذا تشريف عظيم لهم . . .

وثانيها . أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة :

أولها : قوله « إنى » وثانيها قوله « أنا » ، وثالثها، إدخال حرف الألف واللام على قوله « الغفور الرحيم » ، ولما ذكر العذاب لم يقل : إنى أنا المعذب ، بل قال « وأن عذابى هو العذاب الأليم » .

وثالثها : أنه أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ إليهم هذا المعنى، فكأنه أشهده على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة .

ورابعها : أنه لما قال « نبىء عبادى » كان معناه نبىء كل من كان معترفا بعبوديتى ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع . فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصى ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله ـ تعالى ـ »[1] .

وقال الآلوسى : وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن الله ـ تعالى ـ خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله ـ تعالى ـ من العذاب ، لم يأمن من النار » .

وأخرج عبد بن حميد وجماعة عن قتادة أنه قال فى الآية: بلغنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله ـ تعالى ـ لما تورع من حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه »[2] .

وقوله ـ سبحانه ـ « ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... » معطوف على قوله قبل ذلك « نبىء عبادى ... »

قال الجمل : وأصل الضيف : الميل ، يقال أضفت إلى كذا ، اذا ملت إليه والضيف من مال إليك نزولا بك ، وصارت الضيافة متعارفة فى القرى. وأصل

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٩٥ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٥٥ .

الضيف مصدر ، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى غالب كلامهم . وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف ... »[1]

والمراد بضيف إبراهيم هنا : الملائكة الذين نزلوا عنده ضيوفا فى صورة بشرية ، وبشروه بغلام عليم ، ثم أخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط لإهلاكهم ...

ثم فصل - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وضيوفه فقال : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ... »

والظرف « إذ » منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر .

أى : ونبئهم - أيضا - أيها الرسول الكريم - عن ضيف إبراهيم ، وقت أن دخلوا عليه ، فقالوا له على سبيل الدعاء أو التحية « سلاما » أى : سلمت سلاما . أو سلمنا سلاما .

فلفظ « سلاما » منصوب بفعل محذوف .

وقوله - سبحانه - « قال إنا منكم وجلون » بيان لما رد به إبراهيم - عليه السلام - على الملائكة .

و « وجلون » جمع وجل ، والوجل : اضطراب يعترى النفس لتوقع حدوث مكروه .

يقال : وجل الرجل وجلا فهو وجل إذا خاف .

أى : قال لهم إبراهيم بعد أن دخلوا عليه وبادروه بالتحية إنا منكم خائفون .

وقال « إنا منكم ... » بصيغة الجمع ، لأنه قصد أن الخوف منهم قد اعتراه هو ، واعترى أهله معه .

وكان من أسباب خوفه منهم ، أنهم دخلوا عليه بدون إذن ، وفى غير وقت للزيارة وبدون معرفة سابقة لهم ، وأنهم لم يأكلوا من الطعام الذى قدمه إليهم ...

هذا ، وقد ذكر - سبحانه - فى سورة الذاريات أنه ومن عليهم السلام

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٤٨ .

فقال ـ تعالى ـ « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين · إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون »[١] .

كما بين ـ سبحانه ـ فى سورة هود أن من أسباب خوفه منهم، عدم أكلهم من طعامه ؛ قال ـ تعالى ـ : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ـ أى إلى طعامه ـ نكرهم وأوجس منهم خيفة ... »[١] .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالته الملائكة لإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم فقال ـ تعالى ـ : « قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم » .

أى : قالت الملائكة لابراهيم على سبيل البشارة وإدخال السرور على قلبه : لا تخف منا يا إبراهيم ، إنا جئنا إليك لنبشرك بغلام ذى علم كثير بشريعة الله ـ تعالى ـ وبأوامره ونواهيه ، وهو إسحق ـ عليه السلام ـ .

وجملة « إنا نبشرك ... » مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل .

وقد حكى ـ سبحانه ـ هنا أن البشارة كانت له ، وفى سورة هود أن البشارة كانت لامرأته ، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معا ، إما فى وقت واحد ، وإما فى وقتين متقاربين بأن بشروه هو أولا ، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها أيضا ـ ، ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ... » .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن بشروه بهذا الغلام العليم ، فقال ـ تعالى ـ « قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون »[٣] .

والاستفهام للتعجيب . كأنه تعجب من أن يرزقه الله ـ تعالى ـ بغلام عليم بعد أن مسه الكبر ، وبلغ سن الشيخوخة .

و«على» بمعنى مع، والمس: اتصال شىء بآخر على وجه الاحساس والاصابة.

أى : قال إبراهيم للملائكة ، بعد أن بشروه بالولد ، أبشرتمونى بذلك مع أن الكبر قد أصابنى ، والشيخوخة قد اعترتنى فبأى شىء عجيب قد بشرتمونى

(١) الآيات ٢٤ ، ٢٥ (٢) الآية ٧٠ (٣) سورة هود الآية ٧١

وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله — تعالى — ونفاذ أمره، حيث وهبه هذا الغلام فى تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته، والتى جرت العادة أن لا يكون معها إنجاب الأولاد .

وقد حكى القرآن هذا التعجب على لسان امرأة إبراهيم فى قوله ـ تعالى ـ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا، إن هذا لشىء عجيب.. »[١] .

قال الامام الرازى ما ملخصه : والسبب فى هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة . . .

وهناك جواب آخر، وهو أن الانسان إذا كان عظيم الرغبة فى شىء، وفاته الوقت الذى يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله ازداد فرحه وسروره، ويصير ذلك الفرح القوى كالمدهش له وربما يجعله هذا الفرح يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى، طلبا الالتذاذ بسماعها ... »[٢] .

وقوله — سبحانه — قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين » .
أى : قال الملائكة لابراهيم لزيادة اطمئنانه، ولتأكيد بشارته بالغلام العليم :

يا إبراهيم إنا بشرناك بالأمر المحقق الوقوع، وباليقين الذى لا خلف معه، وهو أن الله — تعالى — سيهبك الولد مع تقدم سنك وسن زوجك، فلا تكن من الآيسين من رحمة الله — تعالى — ، فان قدرته — عز وجل — لا يعجزها شىء .

وهنا دفع إبراهم — عليه السلام — عن نفسه رذيلة اليأس من رحمة الله. فقال على سبيل الانكار والنفى « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » أى : أنا ليس بى قنوط أو يأس من رحمة الله، لأنه لا ييأس من رحمة الله ـ تعالى ـ إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب، الذين لا يعرفون سعة رحمته

---

(١) سورة هود الآية ٧١   (٢) تفسير الفخر الرازى حـ ١٩ ص ١٩٧ .

- تعالى - ، ونفاذ قدرته ، ولكن هذه البشارة العظيمة - مع تقدم سنى وسن زوجى - هى التى جعلتنى - من شدة الفرح والسرور - ، أعجب من كمال قدرة الله - تعالى - ، ومن جزيل عطائه ، ومن سابغ منتـــه ، حيث رزقنى الولد فى هذه السن التى جرت العادة بأن لا يكون معها إنجاب أولاده .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله إبراهيم للملائكة، بعد أن اطمأن إليهم ، فقال : « قال فما خطبكم أيها المرسلون » .

والخطب : مصدر خطب يخطب ، ومنه قولهم : هذا خطب يسير ،وخطب جلل ، وجمعه خطوب ، وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور . وأصله الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب و يخطب له .

أى : قال إبراهيم - عليه السلام - للملائكة على سبيـــل الاستيضاح بالتفصيل عن سبب مجيئهم : فما شأنكم الخطير الذى من أجله جئتم إلينا سوى هذه البشارة .

وكأنه قد فهم أن مجيئهم إليه ليس لمجرد البشارة ، بل من وراء البشارة أمر آخر جاؤا من أجله .

وهنا بادرة الملائكة بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » .

أى : قالوا له إنا أرسلنا - بأمر الله - تعالى - إلى قوم شأنهم الاجرام ، ودأبهم الفجور ، والمراد بهم قوم لوط - عليه السلام - وكانوا يسكنون مدينة « سدوم » بمنطقة وادى الأردن وقوله « إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين » استثناء من القوم المجرمين ، الذين أرسل الملائكة لاهلاكهم .

والمراد بآل لوط : أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه ، ولم يشاركوا قومهم فى كفرهم وشذوذهم .

أى : إنا أرسلنا إلى قوم لوط لاهلاكهم ، إلا من آمن منهم فإنا لمنجوهم أجمعين .

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : فإن قلت . قوله ـ تعالى ـ « إلا آل لوط » استثناء متصل أم منقطع ؟

قلت : لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعا، لأن القوم موصوفون بالاجرام فاختلف لذلك الجنسان ، وأن يكون استثناء من الضمير فى « مجرمين » فيكون متصلا ، كأنه قيل : قد أرسلنا إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال : « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين »

فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين ؟ قلت : نعم، وذلك أن آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلا ... كأنه قيل : إنا أهلكنا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم .

وأما فى المتصل ، فهم داخلون فى حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء ، وينجو هؤلاء ، فلا يكون الإرسال مخلصا بمعنى الإهلاك والتعذيب كما فى الوجه الأول »[1] ...

وقوله — سبحانه — « إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » استثناء من الضمير فى (لمنجوهم) ، إخراجا لها من التنجية .

أى : إلا امرأة لوط — عليه السلام — فليست ممن سننجيه ، بل هى ممن سنهلكه مع القوم المجرمين .

ومعنى (قدرنا) : قضينا وحكمنا .

والغابر : الباقى . يقال غبر الشىء غبوراً إذا بقى وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع . وقد يستعمل فى الماضى فيكون هذا اللفظ من الأضداد .

ونسب الملائكة التقدير إليهم فقالوا (إلا امرأته قدرنا ...) مع أنه فعل الله — تعالى — ، لما لهم من الزلفى عنده - سبحانه — ، ولأنهم ما أرسلوا لإهلاك المجرمين وإنجاء المؤمنين إلا بأمره .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٣

قال الآلوسى ماملخصه : والظاهر أن قوله — تعالى — (إلا امرأته قدرنا ...) من كلام الملائكة ، وأسندوا التقدير إلى أنفسهم — وهو فعل الله — سبحانه — ، لما لهم من القرب والاختصاص ، وهذا كما يقول أحد حاشيه السلطان : أمرنا بكذا .. والآمر فى الحقيقة هو السلطان . وقيل — ولايخفى بعده — هو من كلام الله - تعالى - فلا يحتاج إلى تأويل ، وكذا لايحتاج إلى تأويل إذا أريد بالتقدير العلم .

قال بعض العلماء : وفى هذه الآية الكريمة دليل واضح لما حققه علماء الأصول من جواز الاستثناء من الاستثناء ، لأنه — تعالى — استثنى آل لوط من إهلاك المجرمين بقوله (إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين) ثم استثنى من هذا الاستثناء امرأة لوط بقوله (إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين)(١).

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوب بليغ حكيم ، مادار بين إبراهيم وبين الملائكة الذين جاءوا لتبشيره بغلام عليم ، ولإخباره بإهلاك القوم المجرمين ، وهم قوم لوط - عليه السلام - ..

ثم حكت السورة بعد ذلك مادار بينهم وبين لوط — عليه السلام — بعد أن جاءوا إليه ، ومادار بين لوط — عليه السلام - وبين قومه المجرمين من مجادلات ومحاورات ، وماحل بهؤلاء المجرمين من عذاب جعل أعلى مدينتهم أسفلها ... فقال - تعالى - :

فلمَّا جاءَ آلَ لوطٍ المرسَلُونَ (٦١) قالَ إنكُم قومٌ مُنكَرون (٦٢) قالوا جئناكَ بما كانُوا فيه يمترُونَ (٦٣) وأتيناكَ بالحقِّ وإنَّا لصادقونَ (٦٤) فأسْرِ بأهلِكَ بقِطْعٍ من اللَّيلِ واتَّبِع أدْبارَهم ، ولا يلتفِتْ منكُم أحدٌ ، وامضُوا حيثُ تؤمَرون (٦٥) وقَضَيْنَا إليه ذلكَ الأمرَ أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مصبِحين (٦٦) وجاء أهلُ المدينَةِ يستَبْشِرونَ (٦٧) قالَ إنَّ

(١) تفسير (أضواء البيان) ج ٤ ص ١٥٥ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

هؤلاء ضَيْفِى فلاَ تَفْضَحون (٦٨) واتقُوا اللّهَ ولاَ تُخزُونِ (٦٩) قالُوا أوَ لَمْ نَنْهَكَ عن العالَمِينَ (٧٠) قالَ هؤلاء بنَاتِى إن كُنتُم فاعِلِينَ (٧١) لعمركَ إنَّهم لفِى سَكْرَتِهِم يَعْمَهُون (٧٢) فأخذتْهم الصَّيحةُ مُشْرِقينَ (٧٣) فجَعلنَا عالِيهاَ سافِلَها وأَمطَرْنَا عليهِمْ حِجَارةً من سِجِّيلٍ (٧٤) .

قال الآلوسى : وقوله ـ تعالى ـ : (فلما جاء آل لوط المرسلون) شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط . ووضع الظاهر موضع الضمير، للايذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من ذلك)[1] . . .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق والتقدير : وخرج الملائكة من عند إبراهيم ـ بعد أن بشروه بغلامه وبعد أن أخبروه بوجهتهم ـ فاتجهوا إلى المدينة التى يسكنها لوط ـ عليه السلام ـ وقومه ، فلما دخلوا عليه قال لهم : (إنكم قوم منكرون) .

أى : إنكم قوم غير معروفين لى ، لأنى لم يسبق لى أن رأيتكم ، ولاأدرى من أى الأقوام أنتم ، ولا أعرف الغرض الذى من أجله أتيتم ، وإن نفسى ليساورها الخوف والقلق من وجودكم عندى . . .

ويبدو أن لوطا ـ عليه السلام ـ قد قال لهم هذا الكلام بضيق نفس،لأنه يعرف شذوذ المجرمين من قومه ، ويخشى أن يعلموا بوجود هؤلاء الضيوف أصحاب الوجوه الجميله عنده ، فيبدوا عليهم دون أن يملك الدفاع عنهم . . .

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الضيق النفسى ، الذى اعترى لوطا بسبب وجود هؤلاء الضيوف عنده ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عصيب »[2]

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٦٢

(٢) سورة هود الآية ٧٧

وقال — سبحانه — : « فلما جاء آل لوط المرسلون » مع أن المجيء كان للوط — عليه السلام — والخطاب كان معه ، تشريفا وتكريما للمؤمنين من قوم لوط ، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم ، ولما دار بينهم وبين لوط — عليه السلام —

وقوله - سبحانه - : « قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون » ،

حكاية لما رد به الملائكة على لوط ، لكى يزيلوا ضيقه بهم ، وكراهيته لوجودهم عنده .

وقوله « يمترون » من الامتراء ، وهو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

وهو - كما يقول الامام الفخر الرازى - مأخوذ من قول العرب : مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها ، فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء ، كاللبن الذى يجتذب عند الحلب . يقال : قد مارى فلان فلانا ، إذا جاء له كأنه يستخرج غضبه»(١)

أى : قال الملائكة للوط لادخال الطمأنينة على نفسه : يا لوط نحن ما جئنا لإزعاجك أو إساءتك ، وإنما جئناك بأمر كان المجرمون من قومك ، يشكون فى وقوعه ، وهو العذاب الذى كنت تحذرهم منه إذا ما استمروا فى كفرهم وفجورهم ...

وإنا ما أتيناك إلا بالأمر الثابت المحقق الذى لا مرية فيه ولا تردد، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قومك، وإنا لصادقون فى كل ما قلناه لك، وأخبرناك به ، فكن آمنا مطمئنا .

فالاضراب فى قوله « قالوا بل جئناك ... » إنما هو لازالة ما وقر فى قلب لوط - عليه السلام - تجاه الملائكة من وساوس وهواجس .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٨٠ .

فكأنهم قالوا له : نحن ما جئناك بشيء تنكره أو تخافه .. وإنما جئناك بما يسرك ويشفى غليلك من هؤلاء القوم المنكوسين .

وعبر عن العذاب بقوله « بما كانوا فيه يمترون » زيادة فى إدخال الأنس على نفسه ، وتحقيقا لوقوع العذاب بهم .

وقوله « وأتيناك بالحق وإنا لصادقون » تأكيد على تأكيد .

وهذه التأكيدات المتعددة والمتنوعة تشعر بأن لوطا ـ عليه السلام ـ كان فى غاية الهم والكرب لمجىء الملائكة إليه بهذه الصورة التى تغرى المجرمين بهم دون أن يملك حمايتهم أو الدفاع عنهم .

لذا كانت هذه التأكيدات من الملائكة له فى أسمى درجات البلاغة، حتى يزول خوفه ، ويزداد اطمئنانه إليهم ، قبل أن يخبروه بما أمرهم الله ـ تعالى ـ بإخباره به ، وهو قوله ـ تعالى ـ فأسر بأهلك بقطع من الليل. واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون » .

قال القرطبي : قوله « فأسر .. » قرىء فاسر وقرىء فأسر ، بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان ،

قال ـ تعالى ـ « والليل إذا يسر .. » وقال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ... » .

وقيل : فأسر تقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار فى آخره ، ولا يقال فى النهار إلا سار »[1] .

وقوله « بقطع من الليل . » أى : بجزء من الليل. والمراد الجزء الأخير منه أى : قال الملائكة للوط ـ عليه السلام ـ بعد أن أزالوا خوفه منه: يالوط إنا نأمرك ـ بإذن الله تعالى ـ أن تخرج من هذه المدينة التى تسكنها مع قومك وأن يخرج معك أتباعك المؤمنون، وليكن خروجكم فى الجزء الأخير من الليل وقوله « واتبع أدبارهم » أى : وكن وراءهم لتطلع عليهم وعلى أحوالهم.

(١) تفسير القرطبى حـ ٩ ص ٧٩ .

قال الامام ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن الملائكة أنهم أمروا لوطا أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل ، وأن يكون لوط - عليه السلام - يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم .

وهكذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى فى الغزوات إنما كان يكون ساقة ، يزجى الضعيف ، ويحمل المنقطع »(١) .

وقوله « ولا يلتفت منكم أحد » أى : ولا يلتفت منكم أحد أيها المؤمنون - خلفه ، حتى لا يرى العذاب المروع النازل بالمجرمين .

وإنما امرهم - سبحانه - بعدم الالتفات إلى الخلف ، لأن من عادة التارك لوطنه ، أن يلتفت إليه عند مغادرته ، كأنه يودعه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى أمره باتباع أدبارهم ونهيهم عن الالتفات ؟

قلت : قد بعث الله الهلاك على قوم لوط ، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم وخرج مهاجرا فلم يكن له بد من الاجتهاد فى شكر الله ، وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك ، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاما منه ولا غيرها من الهفوات فى تلك الحال المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب ، وليكون مسيره مسير الهارب الذى يقدم سربه ويفوت به . ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا له ، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ، ويمضوا قدما غير ملتفتين إلى ما وراءهم ، كالذى يتحسر على مفارقة وطنه ...

أو جعل النهى عن الالتفات ، كناية عن مواصلة السير ، وترك التوانى والتوقف ، لأن من يتلفت لا بد له فى ذلك من أدنى وقفة »(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٥٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٩٥ .

وقوله « وامضوا حيث تؤمرون » إرشاد من الملائكة للوط ـ عليه السلام ـ إلى الجهة التي أمره الله ـ تعالى ـ بالتوجه إليها .

أي : وامضوا في سيركم إلى الجهة التي أمركم الله ـ تعالى ـ بالسير إليها ، مبتعدين عن ديار القوم المجرمين ، تصحبكم رعاية الله وحمايته .

قيل : أمروا بالتوجه إلى بلاد الشام ، وقيل إلى الأردن ، وقيل إلى مصر .

ولم يرد حديث صحيح يحدد الجهة التي أمروا بالتوجه إليها ، ولكن الذي نعتقده أنهم ذهبوا بأمر الله ـ تعالى ـ إلى مكان آخر ، أهله لم يعملوا ما كان يعمله العادون من قوم لوط ـ عليه السلام ـ .

وقوله ـ سبحانه ـ « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » بيان لجانب آخر من جوانب الرعاية والتكريم للوط ـ عليه السلام ـ

وعدى « قضينا » بإلى ، لتضمنه معنى أوحينا .

والمراد بذلك الأمر : إهلاك الكافرين من قوم لوط ـ عليه السلام ـ .

وجملة « أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » مفسرة ومبينة لذلك الأمر .

وعبر عن عذابهم وإهلاكهم بالإبهام أولا ، ثم بالتفسير والتوضيح ثانيا ، للإشعار بأنه عذاب هائل شديد .

ودابرهم : أي آخرهم الذي يدبرهم . يقال : فلان دبر القوم يدبرهم دبورا إذا كان آخرهم في المجيء . والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب استئصالا .

وقوله « مصبحين » أي : داخلين في الصباح ، مأخوذ من أصبح التامة ، وصيغة أفعل تأتي للدخول في الشيء ، نحو أنجد وأتهم ، أي : دخل في بلاد نجد وفي بلاد تهامه ، وهو حال من اسم الإشارة هؤلاء ، والعامل فيه معنى الإضافة .

والمعنى : وقضينا الأمر بإبادتهم ، وأوحينا إلى نبينا لوط ـ عليه السلام ـ أن آخر هؤلاء المجرمين مقطوع ومستأصل ومهلك مع دخول وقت الصباح .

وفى هذا التعبير ما فيه من الدلالة على أن العذاب سيمحقهم جميعا ، بحيث لا يبقى منهم أحدا ، لا من كبيرهم ولا من صغيرهم ، ولا من أولهم ولا من آخرهم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما حدث من القوم المجرمين ، بعد أن تسامعوا بأن فى بيت لوط ـ عليه السلام ـ شبانا فيهم جمال ووضاءة فقال ـ تعالى ـ « وجاء أهل المدينة يستبشرون » .

والمراد بأهل المدينة : أهل مدينة سدوم التى كان يسكنها لوط وقومه .

ويستبشرون : أى يبشر بعضهم بعضا بأن هناك شبانا فى بيت لوط ـ عليه السلام ـ ، من الاستبشار وهو إظهار الفرح والسرور .

وهذا التعبير الذى صورته الآية الكريمة ، يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء . . .

إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فردا أو أفرادا ، وإنما يأتون جميعا ـ أهل المدينة ـ وفى فرح وسرور ، وفى الجهر والعلانية ، لا فى السر والخفاء . . .

ولأى غرض يأتون ؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التى لم يسبقهم اليها أحد من العالمين .

وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس ، تصل فى مجاهرتها بإتيان الفواحش ، إلى ما لم تصل اليه بعض الحيوانات . . .

ويقف لوطا ـ عليه السلام ـ أمام شذوذ قومه مغيظا مكروبا ، يحاول أن يدفع عن ضيفه شرورهم ، كما يحاول أن يحرك فيهم ذرة من الآدميه فيقول لهم : « إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون »

وتفضحون : من الفضح والفضيحة . يقال فضح فلان فلانا فضحا وفضيحة ، إذا اظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه .

أي : قال لوط — عليه السلام — لمن جاءوا يهرعون إليه من قومه لارتكاب الفاحشة مع ضيوفه : ياقوم إن هؤلاء الموجودين عندي ضيوفي الذين يلزمني حمايتهم ، فابتعدوا عن داري وعودوا إلى دياركم ، ولا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشه فأهون في نظرهم ، لعجزي عن حمايتهم ، وأنتم تعلمون أن كرامة الضيف جزء من كرامه مضيفه ...

وعبر لوط — عليه السلام — عن الملائكة بالضيف لأنه لم يكن قد علم أنهم ملائكة ولأنهم قد جاءوا اليه في هيئه الآدميين .

ثم أضافه لوط — عليه السلام — إلى رجاء قومه رجاء آخر ، حيث ذكرهم بتقوى الله فقال : « واتقوا الله ولا تخزون » .

أي : وأتقوا الله وصونوا أنفسكم عن عذابه وغضبه ، ولا تخزون مع ضيفي ، وتذلوني وتهينوني أمامهم .

يقال : خزِيَ الرجل يخزى خزيا وخزَى ، إذا وقع في مصيبة فذل لذلك

ولكن هذه النصائح الحكيمه من لوط — عليه السلام — لقومه ، لم تجد أذنا صاغيه ، بل قابلوها بسوء الأدب معه ، وبالتطاول عليه ، بشان الطغاة الفجرة « قالوا أو لم ننهك عن العالمين »

والاستفهام للانكار . ولواو للعطف على محذوف ، والعالمين : جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله — تعالى — والمراد بالعالمين هنا : الرجال الذين كانوا يأتون معهم الفاحشة من دون النساء .

أي : قال قوم لوط له بوقاحة وسوء أدب . أو لم يسبق لنا يالوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد إرتكاب الفاحشة معه من الرجال ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لك بعد هذا النهى أن تمنعنا عما نريده من ضيوفك وأنت تعلم ما نريده منهم ؟

ولكن لوطا — عليه السلام — مع شناعة قولهم هذا ، لم ييأس من محاولة منعهم عما يريدونه من ضيوفه ، فأخذ يرشدهم إلى ماتدعو اليه الفطرة السليمة فقال : « هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين »

والمراد ببناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج. وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أب لأمته من حيث الشفقة والرعاية وحسن التربية .

قال إبن كثير ما ملخصه : يرشد لوطا — عليه السلام — قومه إلى نسائهم فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ماهو أنفع لهم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : أتاتون الذكران من العالمين .وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون » .... (١)

وقيل المراد ببناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن ويضعف هذا الرأى أن لوطا - عليه السلام — كان له بنتان أو ثلاثة كما جاء فى بعض الروايات ، وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرا ، كما يرشد اليه قوله - تعالى - « وجاء أهل المدينة يستبشرون » فكيف تكفيهم بنتان أوثلاثة للزواج بهن ؟

قال الإمام الرازى فى ترجيح الرأى الأول ما ملخصه : « وهـذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه منها : أنه قال هؤلاء بناتى ... وبناته اللاتى من صلبه لا تكفى هذا الجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : « زنتا وزاعورا »وإطلاق لفظ البنات على البنتين لايجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة » (١)

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - لما رأى هيجان قومه ، وإصرارهم على إرتكاب الفاحشة مع ضيوفه ، قال لهم على سبيل الإرشاد إلى مايشبع الفطرة السليمة : ياقوم هؤلاء نساؤكم اللاتى هن بمنزله بناتي ، فاقضوا معهن شهوتكم إن كنتم فاعلين ، لما أرشدكم اليه من توجيهات وآداب .

وعبر بإن فى قوله « إن كنتم فاعلين » لشكه فى إستجابتهم لما يدعوهم اليه فكأنه يقول لهم : إن كنتم فاعلين لما أطلبه منكم،وما أظنكم تفعلونه لانتكاس فطرتكم ، وإنقلاب أمزجتكم ...

---

(١) تفسير إبن كثير حـ ٤ ص ٢٦٨

(٢) تفسير الفخر الرازى حـ ١٨ ص ٣٢

وجواب الشرط محذوف، أي : إن كنتم فاعلين ما أرشدكم اليه فهو خير لكم

وقوله - سبحانه - : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » يرى جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء قصة لوط - عليه السلام ، مع قومه ، لبيان أن الموعظة لا تجدى مع القوم الغاوين، ولتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من سفهاء قومه .

فالخطاب فيه للنبي - صلى الله عليه وسلم - واللام في « لعمرك » لام القسم ، والمقسم به حياته - صلى الله عليه وسلم - والعمر - بفتح العين - لغة في العمر - بضمها ، ومعناهما : مدة حياة الإنسان وبقائه في هذه الدنيا، إلا أنهم الزموا مفتوح العين في القسم ، وهو مبتدأ وخبره محذوف وجوبا والتقدير لعمرك قسمي أو يميني .

والسكرة : ذهاب العقل ، مأخوذة من السكر - بفتح العين وإسكان الكاف - وهو السد والإغلاق . وأطلقت هنا على الغواية والضلاله لإزالتهما الرشد والهداية و «يعمهون» من العمه بمعنى التحير والتردد في الأمر . وهو للبصيرة بمنزله العمى للبصر .

يقال : عمه فلان - كفرح - عمها ، إذا تردد وتحير ، فهو عمه وعامه ، وهم عمهون وعمه - كركع -

والمعنى : بحق حياتك - أيها الرسول الكريم - إن هؤلاء المكذبين لك ، لفي غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيرون ، شأنهم في ذلك شأن الضالين من قبلهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح،وغيرهم من المتكبرين في الأرض بغير الحق ...

قال الآلوسي : وقوله « لعمرك » قسم من الله - تعالى - بعمر نبينا - صلى الله عليه وسلم - على ماعليه جمهور المفسرين . وأخرج البيهقي في الدلائل ، وأبو نعيم وابن مردويه وغيرهم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : ما خلق الله - تعالى - وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد - صلى الله

عليه وسلم - وما سمعت الله - تعالى - أقسم بحياة أحد غيره . قال - تعالى - : « لعمرك أنهم لفى سكرتهم يعمهون » ، وقيل هو قسم من الملائكة بعمر لوط - عليه السلام - ، وهو مع مخالفته المأثور محتاج لتقدير القول ، أى . قالت الملائكة للوط - عليه السلام - لعمرك . . وهو خلاف الأصل وإن كان سياق القصة شاهدا له وقرينة عليه . . » (١)

ثم ختم - سبحانه - القصة ببيان النهاية الأليمة لهؤلاء المفسدين من قوم لوط فقال - تعالى - « فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل »

والصيحة : من الصياح وهو الصوت الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بشدة . وأصل ذلك تشقيق الصوت من قولهم : انصاح الخشب أو الثوب ، إذا إنشق فسمع منه صوت . قالوا : وكل شيء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة .

« مشرقين » : اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس ، أى : أن الله - تعالى - بعد أن أخبر لوطا - عليه السلام - بإهلاك قومه، وأمره عن طريق الملائكة - بالخروج ومعه المؤمنون من هـــذه المدينة . . جاءت الصيحة الهائلة من السماء فأهلكتهم جميعاً وهم داخلون فى وقت شروق الشمس .

وقال - سبحانه - قبل ذلك : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » وقال هنا فأخذتهم الصيحة مشرقين » للإشارة إلى أن إبتداء عذابهم كان عند الصباح وإنتهاءه بإستئصال شأفتهم كان مع وقت الشروق .

والضمير فى قوله « عاليها وسافلها » يعود إلى المدينة التى كان يسكنها المجرمون من قوم لوط .

أى : فجعلنا بقدرتنا عالى هذه المدينة سافلها ، بأن قلبناهـــا قلبا كاملا

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٦٦

« وأمطرنا عليهم » أى على هؤلاء المجرمين من قوم لوط «حجارة » كائنة « من سجيل » أى من طين متحجر . فهلكوا جميعا .

وهكذا أخذ الله ـ تعالى ـ هؤلاء المجرمين أخذ عزيز مقتدر ، حيث أهلكهم بهذه العقوبة التى تتناسب مع جريمتهم، فهم قلبوا الأوضاع ، فأتوا بفاحشة لم يسبقوا اليها، فانتقم الله ـ تعالى ـ منهم بهذه العقوبه التى جعلت أعلى مساكنهم أسفلها .

ثم ساقت السورة الكريمة بعض العبر والعظات التى يهتدى بها العقلاء من قصتى إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ كما ساقت بعد ذلك جانبا من قصتى شعيب وصالح ـ عليهما السلام ـ فقال ـ تعالى ـ :

إِنَّ فى ذلِكَ لَآياتٍ لِلمتوسِّمِينَ (٧٥) وإنَّها لبِسَبِيلٍ مُقيمٍ (٧٦) إنَّ فى ذلكَ لَآيةً للمؤمنينَ (٧٧) وإنْ كانَ أصحابُ الأيكةِ لظالمينَ (٧٨) فانتَقَمنَا مِنهمُ وإنَّهُما لبِإمامٍ مُبينٍ (٧٩) ولقد كَذَّبَ أصحابُ الحِجْرِ المرسَلِينَ (٨٠) وآتَينَاهُم فكانُوا عنها مُعرِضينَ (٨١) وكانُوا ينحِتُون من الجبالِ بيوتاً آمنينَ (٨٢) فأخذَتْهُم الصيحةُ مُصبِحينَ (٨٣) فما أغنَى عنهُم ما كانُوا يكْسِبُون (٨٤) .

فاسم الإشارة فى قوله ـ سبحانه ـ « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » يعود إلى ماتضمنته القصة السابقة من عبر وعظات .

والآيات جمع آية ، والمراد بها هنا الأدلة والعلامات الدالة على مايوصل إلى الحق والهداية . والمتوسمون : جمع المتوسم ، وهو المتأمل فى الأسباب وعواقبها ، وفى المقدمات ونتائجها . .

قال القرطبي ماملخصه : التوسم تفعل من الوسم، وهى العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيرها . يقال : توسمت فى فلان الخير ، إذا رأيت ميسم ذلك فيه ، ومنه قول عبد الله بن رواحه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

إنى توسمت فيك الخير أعرفه   والله يعلم أنى ثابت البصر

وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير وغيره ...

وذلك يكون بجودة القريحة ، وحدة الخاطر ، وصفاء الفكر ، وتطهير القلب من أدناس المعاصى .

والمراد بالمتوسمين : المتفرسين : أو المتفكرين ، أو المعتبرين ، أو المتبصرين .. والمعنى متقارب .. »[١] .

والمعنى : إن فى ذلك الذى سقناه فى قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - لأدلة واضحة على حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الغاوين، لمن كان ذا فكر سليم ، وبصيرة نافذة تتأمل فى حقائق الأشياء ، وتتعرف على مايوصلها إلى الهداية والطريق القويم .

قال بعض العلماء عند تفسيره لهذه الآية : هذه الآية أصل فى الفراسة . أخرج الترمذى من حديث أبى سعيد مرفوعا : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية ...

وقد أجاد الكلام فى الفراسة ، الراغب الأصفهانى فى كتابه « الذريعة » حيث قال فى الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله ...

وقد نبه - سبحانه - على صدقها بقوله « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » وبقوله « تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً »[٢] . وبقوله « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول »[٣] ...

ولفظها مأخوذ من قولهم « فرس السبع الشاه » فكأن الفراسة اختلاس المعـــارف[٤] .....

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٤٢

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٣   (٣) سورة محمد الآية ٣٠

(٤) راجع تفسير القاسمى ج ١٤ ص ٣٧٦٤

وفى هذه الآية الكريمة تعريض لمن تمر عليهم العبر والعظات . والأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وكمال قدرته . . . فلا يعتبرون ولا يتعظون ولا يتفكرون فيها ، لانطماس بصيرتهم ، واستيلاء الأهواء والشهوات على نفوسهم ، كما قال - تعالى - « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله ، إلا وهم مشركون »(٤) .

والضمير فى قوله - سبحانه - (وإنها لبسبيل مقيم) يعود إلى المدينة أو القرى التى كان يسكنها قوم لوط - عليه السلام - .

أى : وإن هذه المساكن التى كان يسكنها هؤلاء المجرمون ، لبطريق ثابت واضح يسلكه الناس ، ويراه كل مجتاز له وهو فى سفره من الحجاز إلى الشام ، كما قال - تعالى - (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون)(٥) :

والمقصود تذكير كفار قريش وغيرهم بعاقبة الظالمين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وجحودهم ، وحتى يعتبروا ويتعظوا ، ويدخلوا مع الداخلين فى دين الإسلام .

وقوله - سبحانه - : (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) تذييل قصد به التعميم بعد التخصيص ، لأن اسم الإشارة هنا يعود إلى جميع ماتقدم من قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - وإلى ما انضم إليهما من التذكير بآثار الأقوام المهلكين .

أى : أن فيما ذكرناه فيما سبق من أدلة واضحة على حسن عاقبة المتقين ، وسوء نهاية الظالمين ، لعبرة واضحة ، وحكمة بالغة ، للمؤمنين الصادقين .

وخصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالأدلة والعظات ، وللتنبيه على أن التفرس فى الأمور لمعرفة أسبابها ونتائجها من صفاتهم وحدهم .

وجمع الآيات قبل ذلك فى قوله « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » وأفردها هنا فقال : « إن فى ذلك لآية للمؤمنين » للاشعار بأن المؤمنين الصادقين تكفى

---

(١) سورة يوسف الايتان ١٠٥ ، ١٠٦

(٢) سورة الصافات الايتان ١٣٧ ، ١٣٨

لهدايتهم، ولزيادة إيمانهم، آية واحدة من الآيات الدالة على أن دين الإسلام هو الدين الحق، وفي ذلك ما فيه من الثناء عليهم، والمدح لهم، بصدق الإيمان، وسلامة اليقين ...

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من قصة أصحاب الأيكة زيادة العظات والعبر، فقال ـ تعالى ـ : وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين، و (إن) هي المخففة من الثقيلة، وأسمها ضمير الشأن المحذوف.

وأصحاب الأيكة، هم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ، والأيك الشجر الكثير الملتف واحدته أيكة ـ كتمر وتمرة ـ.

والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار التي كانت فيها مساكنهم، قرب مدين قرية شعيب ـ عليه السلام ـ.

وجمهور العلماء على أن أهل مدين وأصحاب الأيكة قبيلة واحدة، وأرسل الله ـ تعالى ـ إليهم جميعا شعيبا ـ عليه السلام ـ لأمرهم بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ، ونهيهم عن تطفيف الكيل والميزان، وعن قطع الطريق ...

وكانوا جميعا يسكنون في المنطقة التي تسمى بمعان، على حدود الحجاز والشام، أو أن بعضهم كان يسكن الحاضرة وهم أهل مدين، والبعض الآخر كان يسكن في البوادي المجاورة لها، والمليئة بالأشجار.

وقيل: إن شعيبا ـ عليه السلام ـ أرسل إلى أمتين: أهل مدين، وأصحاب الأيكة، وهذه خصوصية له ـ عليه السلام ـ.

وعلى أية حال فالعلماء متفقون على أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ.

والإمام: الطريق الواضح المعالم. وسمي الطريق إماما لأن المسافر يأتم به، ويهتدي بمسالكه، حتى يصل إلى الموضع الذي يريده.

والمعنى: وإن الشأن والحال أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين متجاوزين لكل حد، فاقتضت عدالتنا أن ننتقم منهم، بسبب كفرهم وفجورهم.

« وإنهما » أي مساكن قوم لوط ، ومساكن قوم شعيب « لبإمام مبين » أي : لبطريق واضح يأتون به أهل مكة في سفرهم من بلادهم إلى بلاد الشام.

قال ابن كثير : وقد كانوا - أي أصحاب الأيكة - قريبا من قوم لوط ، بعدهم في الزمان ، ومسامتين لهم في المكان، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في إنذاره لهم (وماقوم لوط منكم ببعيد)[1] .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم بجانب من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه . فقال - تعالى - (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) ....

وأصحاب الحجر : هم ثمود قوم صالح - عليه السلام - .

والحجر : واد بين الشام والمدينة المنورة ، كان قوم صالح يسكنونه . والحجر في الأصل : كل مكان أحاطت به الحجارة ، أو كل مكان محجور أي ممنوع من الناس بسبب أختصاص بعضهم به .

ومازال هذا المكان يعرف إلى الآن باسم مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك ، كما أشرنا إلى ذلك عند التعريف بالسورة الكريمة .

وقال - سبحانه - : ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولهم - عليه السلام - ، لأن تكذيب رسول واحد ، وتكذيب لجميع الرسل ، حيث إن رسالتهم واحدة ، وهي الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والنهي عن الرذائل والمفاسد.

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا التكذيب لرسولهم - عليه السلام - فقال: (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين .

أي : وأعطينا قوم صالح - عليه السلام - آياتنا الدالة على صدقه وعلى أنه رسول من عندنا ، والتي من بينها الناقة التي أخرجها الله - تعالى - لهم ببركة دعاء نبيهم (فكانوا عنها) أي عن هذه الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٦٢

(معرضين) لايلتفتون إليها ، ولا يفكرون فيها ، ولهذا عقروا الناقة « وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم فى بيوتهم المنحوتة فى الجبال فقال - تعالى - : « وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين » .

وينحتون : من النحت وهو برى الحجر من وسطه أو جوانبه ، لإعداده للبناء أو للسكن أى : وكانوا لقوتهم وغناهم يتخذون لأنفسهم بيوتا فى بطون الجبال وهم آمنون مطمئنون ، أو يقطعون الصخر منها ليتخذوه بيوتا لهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين[١] » أى : حاذقين فى نحتها . وقوله - تعالى - : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا[٢] » .

قال ابن كثير : ذكر - تعالى - أنهم (كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) أى : من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراو بطرا وعبثا ، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر ، الذى مر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه - أى غطاها بثوبه - وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : لاتدخلوا بيوت القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم)[٣] .

ولكن ماذا كانت نتيجة هذه القوة الغاشمة ، والثراء الذى ليس معه شكر لله - تعالى - والإصرار على الكفر والتكذيب لرسل الله - تعالى - ، والإعراض عن الحق ... ؟

لقد بين القرآن عاقبة ذلك فقال : (فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) .

أى : فكانت نتيجة تكذيب أصحاب الحجر لرسولهم صالح - عليه السلام -

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٤٩ (٢) سورة الأعراف الآية ٧٩

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٦٣

أن أهلكهم الله ـ تعالى ـ وهم داخلون فى وقت الصباح ، عن طريق الصيحة الهائلة ، التى جعلتهم فى ديارهم جاثمين ، دون أن يغنى عنهم شيئا ما كانوا يكسبونه من جمع الأموال ، وما كانوا يصنعونه من نحت البيوت فى الجبال .

وهكذا نرى أن كل وقاية ضائعة ، وكل أمان ذاهب ، وكل تحصن زائل أمام عذاب الله المسلط على أعدائه المجرمين .

وهكذا تنتهى تلك الحلقات المتصلة من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم والتى تتفق جميعها فى بيان سنة من سنن الله ـ تعالى ـ فى خلقه ، وهى أن النجاة والسعادة والنصر للمؤمنين ، والهلاك والشقاء والهزيمة للمكذبين .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان كمال قدرة الله ـ تعالى ـ ، وببيان جانب من النعم التى منحها ـ سبحانه ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبتهديد المشركين الذين جعلوا القرآن عضين ، والذين جعلوا مع الله إلها آخر ، وبتسليته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما لحقه منهم من أذى ، فقال ـ تعالى ـ :

وما خَلَقْنا السموات والأرضَ وما بينَهما إلا بالحقِّ ، وإنّ الساعةَ لآتيةٌ فاصفَحْ الصفحَ الجميلَ (٨٥) إنَّ ربَّك هو الخلاقُ العليمُ (٨٦) ولقد آتيناكَ سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عينَيْكَ إلا ما مَتَّعنا به أزواجاً منهم ولا تحزَنْ عليهم واخفِضْ جناحَكَ للمؤمنينَ (٨٨) وقل إنِّى أنَا النذيرُ المبينُ (٨٩) كما أنزَلْنا على المقتسمينَ (٩٠) الذينَ جعلُوا القرآنَ عِضِينَ (٩١) فوربِّكَ لنسألَنَّهم أجمعينَ (٩٢) عما كانُوا يعملُونَ (٩٣) فاصدَعْ بما تُؤمَرُ وأعرِضْ عن المشركينَ (٩٤) إنَّا كفَيناكَ المستهزئينَ (٩٥) الذين يجعلُون مع اللهِ إلهاً آخرَ فسوفَ يعلمونَ (٩٦) ولقدْ نعلَمُ أنَّكَ يضيق صدرُك بما يقولُونَ (٩٧) واعبُدْ ربَّكَ حتى يأتيكَ اليقينُ (٩٩) .

فقوله - سبحانه - (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) توجيه للناس إلى التأمل فى مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وإلى الحق الأكبر الذى قام عليه هذا الوجود ، بعد أن بين - سبحانه - قبل ذلك سنته التى لاتتخلف ، وهى أن حسن العاقبة للمتقين ، وسوء المصير للمكذبين .

والحق : هو الأمر الثابت الذى تقتضيه عدالة الله - تعالى - وحكمته .

والباء فيه للملابسة .

أى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات لا يعلمها إلا الله ، إلا خلقا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبالعدل الذى لا يخالطه جور وبالحكمة التى تتنزه عن العبث ، وتأبى استمرار الفساد ، واستبقاء ضعف الحق أمام الباطل .

والمراد بالساعة فى قوله - تعالى - : « وإن الساعة لآتية » : ساعة البعث والحساب والثواب والعقاب فى الآخرة .

أى : وإن ساعة إعطاء كل ذى حق حقه ، ومعاقبة كل ذى باطل على باطله ، لآتية لا ريب فيها ، فمن فاته أخذ حقه فى الدنيا فسيأخذه وافيا غير منقوص فى الآخرة ، ومن أفلت من عقوبة الدنيا فسينال ما هو أشد وأخزى منها فى يوم الحساب .

فالجملة الكريمة إنتقال من تهديد المجرمين بعذاب الدنيا ، إلى تهديدهم بعذاب الاخرة ، والمقصود من ذلك تسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المكذبين من أذى .

وأكد - سبحانه - هذه الجملة بإن وبلام التوكيد ، ليدل على ان الساعة آتية لامحالة ، وليخرس ألسنة الذين ينكرون وقوعها وحدوثها . . .

وجملة « فاصفح الصفح الجميل » تفريع على ماقبلها .

والصفح الجميل : ترك المؤاخذة على الذنب ، وإغضاء الطرف عن مرتكبه بدون معاتبة .

أى : مادام الأمر كما ذكرنا لك أيها الرسول الكريم - من أن هذا الكون

قد خلقناه بالحق ، ومن أن الساعة آتية لا ريب فيها ... فاصفح عن هؤلاء المكذبين لك صفحا جميلا ، لا عتاب معه ولا حزن ولا غضب ... حتى يحكم الله بينك وبينهم .

وهذا التعبير فيه ما فيه من تسليته - صلى الله عليه وسلم - وتكريمه ، لأنه - سبحانه - أمره بالصفح الجميل عن أعدائه ، ومن شأن الذي يصفح عن غيره، أن يكون أقوى وأعز من هذا الغير . فكأنه - سبحانه - يقول له : اصفح عنهم فعما قريب ستكون لك الكلمة العليا عليهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون »[1] .

وقوله - سبحانه - : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير »[2] .

وقوله - سبحانه - « إن ربك هو الخلاق العليم » تعليل للأمر بالصفح الجميل عنهم .

والخلاق والعليم : صيغتا مبالغة من الخلق والعلم ، للدلالة على كثرة خلقه، وشمول علمه .

أى : « إن ربك » أيها الرسول الكريم ، الذى رباك برعايته وعنايته ، واختارك لحمل رسالته « هو » - سبحانه - « الخلاق » لك ولهم ولكل شىء فى هذا الوجود .

« العليم » بأحوالك وبأحوالهم ، وبما يصلح لك ولهم ولكل الكائنات .

وقد علم - سبحانه - أن الصفح عنهم فى هذا الوقت فيه المنفعة لك ولهم، فحقيق بك - أيها الرسول الكريم - أن تطيعه - سبحانه - ، وأن تكل الأمور إليه.

ولقد تحقق الخير من وراء هذا التوجيه السديد من الله - تعالى - لنبيه

---

(١) سورة الزخرف الآيه ٨٩ .

(٢) سورة البقرة الآيه ١٠٩ .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ترتب على هذا الصفح : النصر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين ، والهدايه لبعض الكافرين وهم الذين دخلوا فى الإسلام بعد نزول هذه الايه ، وصاروا قوة للدعوة الإسلاميه بعد أن كانوا حربا عليها ، وتحقق ـ أيضا ـ قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ـ عز وجل ـ » .

ثم أتبع ـ سبحانه ـ هذه التسليه والبشارة للرسول. صلى الله عليه وسلم. بمنة ونعمة أجل وأعظم من كل ماسواها ، ليزيده اطمئنانا وثقه بوعد الله ـ تعالى ـ فقال : « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » .

والمراد بالسبع المثانى : سورة الفاتحه. وسميت بذلك ، لأنها سبع آيات، ولأنها تثنى أى تكرر فى كل ركعه من ركعات الصلاة .

قال صاحب الكشاف : والمثانى من التثنيه وهى التكرير للشىء ، لأن الفاتحه تكرر قراءتها فى الصلاة . أو من الثناء ، لاشتمالها على ماهو ثناء على الله ـ تعالى ـ ... »(١)

والمعنى : ولقد أعطيناك ـ أيها الرسول الكريم ـ سورة الفاتحه التى هى سبع آيات ، والتى تعاد قراءتها فى كل ركعه من ركعات الصلاة ، وأعطيناك ـ أيضا ـ القرآن العظيم الذى يهدى للطريق التى هى أقوم .

وأوثر فعل « آتيناك » بمعنى أعطيناك على أوحينا إليك، أو أنزلنا عليك؛ لأن الإعطاء أظهر فى الإكرام والإنعام .

وقوله « والقرآن العظيم » معطوف على « سبعا » من باب عطف الكل على الجزء ، اعتناء بهذا الجزء .

ووصف ـ سبحانه ـ القرآن بأنه عظيم ، تنويها بشأنه ، وإعـــلاء لقدره .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٧ .

ومما يدل على أن المراد بالسبع المثانى سورة الفاتحة ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد بن المعلى قال: مربى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا أصلى، فدعانى فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: ماامنعك أن تأتينى؟ فقلت: كنت أصلى.

فقال: ألم يقل الله: «ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم».

ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ ثم ذهب النبى — صلى الله عليه وسلم — ليخرج، فذكرته فقال: «الحمد لله رب العالمين» هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته.

وروى البخارى — أيضا — عن أبى هريرة قال: قال النبى — صلى الله عليه وسلم —: أم القرآن هى: السبع المثانى والقرآن العظيم».

هذا، وهناك أقوال أخرى فى المقصود بالسبع المثانى، ذكرها بعض المفسرين فقال: اختلف العلماء فى السبع المثانى: فقيل الفاتحة. قاله على ابن أبى طالب، وأبو هريرة، والربيع بن أنس، وأبو العالية، والحسن وغيرهم. وروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وجوه ثابتة من حديث أبى بن كعب وأبى سعيد بن المعلى ...

وقال ابن عباس: هى السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معا ...

وأنكر قوم هذا وقالوا: أنزلت هذه الآية بمكة، ولم ينزل من السبع الطوال شىء إذ ذاك.

وقيل: المثانى القرآن كله، قال الله ـ تعالى ـ «كتابا متشابها مثانى». هذا قول الضحاك وطاووس، وقاله ابن عباس. وقيل له: مثانى، لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه ...

وقيل : المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنـــذار . . .

ثم قال : والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ، إلا أنه إذا ورد عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وثبت عنه نص فى شيء لايحتمل التأويل ، كان الوقوف عنده »[1] .

والذى نراه ، أن المقصود بالسبع المثانى هنا : سورة الفاتحة ، لثبوت النص الصحيح بذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ومتى ثبت النص الصحيح عنه - صلى الله عليه وسلم - فى شيء فلا كلام لأحد معه أو بعده - صلى الله عليه وسلم - .

ثم نهى الله - تعالى - المسلمين فى شخص نبيهم - صلى الله عليه وسلم - عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا ، فقال - تعالى - : « لاتمدن عينيك إلى ماتمتعنا به أزواجا منهم » . . .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟

قلت : يقول الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وإن عظمت فهى إليها حقيرة ضئيلة ، وهى القرآن العظيم ، فعليك أن تستغنى به ، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا . . .

قال أبو بكر الصديق : من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيما ، وعظم صغيرا »[2] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٥٥

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٨

وقال ابن كثير : وقال ابن أبي حاتم : ذكر عن وكيع بن الجراح ، قال : حدثنا موسى بن عبيدة ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبي رافع صاحب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أضاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضيف ، ولم يكن عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيء يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود : يقول لك محمد رسول الله : أسلفني دقيقا إلى هلال رجب . قال اليهودي : لا إلا برهن . فأتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته ، فقال: أما والله إني لأمين من في السماء ، وأمين من في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية . « لا تمدن عينيك» كأنه ـ سبحانه ـ يعزيه عن الدنيا »[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ « تمدن » من المد ، وأصله الزيادة . واستعير هنا للتطلع إلى ما عند الغير برغبة وتمن وإعجاب . يقال : مد فلان عينه إلى مال فلان ، إذا اشتهاه وتمناه وأراده .

والمراد بالأزواج : الأصناف من الكفار الذين متعهم الله بالكثير من زخارف الدنيا .

والمعنى : لا تحفل ـ أيها الرسول الكريم ـ ولا تطمح ببصرك طموح الراغب في ذلك المتاع الزائل ، الذي متع الله ـ تعالى ـ به أصنافا من المشركين فإن ما بين أيديهم منه شيء سينتهي عما قريب ، وقد آتاهم الله ـ تعالى ـ إياه على سبيل الاستدراج والإملاء ، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى ، وهو القرآن العظيم .

قال صاحب الظلال : والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أي : يتوجه . ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهي صورة طريفة حين يتخيلها المتخيل ...

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٦٦ .

والمعنى وراء ذلك ، ألا يحفل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك المتاع الذى آتاه الله ـ تعالى ـ لبعض الناس ... ولا يلقى إليه نظرة اهتمام، أو نظرة استجمال ، أو نظرة تمن »(١) .

وقال ـ سبحانه ـ هنا « لاتمدن ... » بدون واو العطف ، وقال فى سورة طه « ولاتمدن ... » بواو العطف ، لأن الجملة هنا مستأنفة استئنافا بيانيا ، جوابا لما يختلج فى نفوس بعض المؤمنين من تساؤل عن أسباب الإملاء والعطاء الدنيوى لبعض الكافرين . ولأن الجملة السابقة عليها وهى قوله «ولقد آتيناك سبعا من المثانى ... » كانت بمنزلة التمهيد لها ، والإجمال لمضمونها .

أما فى سورة طه ، فجملة « ولا تمدن ... » معطوفة على ماسبقها من طلب وهو قوله ـ تعالى ـ « فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا ... »(٢) .

وقوله ـ سبحانه ـ « ولا تحزن عليهم » نهى له ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الاهتمام بالمصير السيء الذى ينتظر أعداءه .

أى : ولا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ لكفر من كفر من قومك ، أو لموتهم على ذلك ، أو لا عراضهم عن الحق الذى جئتهم به ، فإن القلوب بأيدينا نصرفها كيف نشاء ، أما أنت فعليك البلاغ .

وقوله ـ سبحانه ـ « واخفض جناحك للمؤمنين » بيان لما يجب عليه نحو أتباعه ، بعد بيان مايجب عليه نحو أعدائه .

وخفض الجناح كناية عن اللين والمودة والعطف .

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ١٤ ص ٢١٥٤

(٢) سورة طه الآيتان ١٣٠ ، ١٣١

أى : وكن متواضعا مع أتباعك المؤمنين ، رءوفا بهم ، عطوفا عليهم .

قال الشوكانى : وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ...

وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إليه بسط جناحه ثم قبض على الفرخ ، فجعل ذلك وصفا لتواضع الإنسان لأتباعه... والجناحان من ابن آدم جانباه»[1].

وقوله ـ سبحانه ـ : « وقل إنى انا النذير المبين » معطوف على ماقبله .

أى : لاتحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ على مصير الكافرين ، وتواضع لأتباعك المؤمنين ، وقل للناس جميعا ما قاله كل نبي قبلك لقومه : إنى أنا المنذر لكم من عذاب الله إذا مابقيتم على كفركم، الموضح لكم كل مايخفى عليكم.

فالنذير هنا بمعنى المنذر ، والمبين بمعنى الكاشف والموضح .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إنما مثلى ومثل مابعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : ياقوم ، إنى رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلهم فنجوا . وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم .

فذلك مثل من أطاعنى وأتبع ماجئت به، ومثل من عصانى وكذب ماجئت به من الحق »[2] .

ثم هدد ـ سبحانه ـ الذين يحاربون دعوة الحق، ويصفون القرآن بأوصاف لاتليق به فقال ـ تعالى ـ : « كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين » ...

والكاف فى قوله « كما » للتشبيه ، و« ما » موصولة أو مصدرية وهى المشبه به أما المشبه فهو الايتاء المأخوذ من قوله ـ تعالى ـ « ولقد آتيناك سبعا من المثانى ».

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ١٤٢

(٢) صحيح البخارى : كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ج ٩ ص ١١٥ . وصحيح مسلم كتاب الفضائل ج٧ ص ٦٣

ولفظ « المقتسمين » افتعال من القسم بمعنى تجزئة الشيء وجعله اقساما .. والمراد بهم بعض طوائف أهل الكتاب ، الذين آمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر .

أو المراد بهم ـ كما قال ابن كثير ـ : « المقتسمين » أى المتحالفين ، أى الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ... »[1] .

ولفظ « عضين » جمع عضة ـ بزنة عزة ـ، وهى الجزء، والقطعة من الشيء. تقول : عضيت الشيء تعضية ، أى . فرقته وجعلته أجزاء كل فرقة عضة .

قال القرطبى ماملخصه : وواحد العضين عضة، من عضيت الشيء تعضية أى فرقته ، وكل فرقة عضة قال الشاعر : وليس دين الله بالمعضى. أى: بالمفرق.

والعضه والعضين فى لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر عاضه ، وللساحرة عاضهة ...

وفى الحديث : لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العاضهة والمستعضهة أى الساحرة والمستسحرة .. وقيل : هو من العضة ، وهى النميمة . والعضيهة البهتان .. يقال : أعضهت يافلان أى : جئت بالبهتان »[2] .

والمعنى : ولقد آتيناك ـ أيها الرسول الكريم ـ السبع المثانى والقرآن العظيم ، مثلى ما أنزلنا على طوائف أهل الكتاب المقتسمين ، أى الذين قسموا كتابهم أقساما ، فأظهروا قسما وأخفوا آخر ، والذين جعلوا ـ أيضا ـ القرآن أقساما ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا بالبعض الآخر ..

فجملة « الذين جعلوا القرآن عضين » بيان وتوضيح للمقتسمين .

ومنهم من يرى أن قوله ـ تعالى ـ « كما أنزلنا على المقتسمين ... » متعلق بقوله ـ تعالى ـ قبل ذلك ، « وقل إنى أنا النذير المبين » فيكون المشبه الانذار بالعقاب المفهوم من الآية الكريمة .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٦ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٥٩

وأن المراد بالمقتسمين: جماعة من مشركي قريش،قسموا أنفسهم أقساما لصرف الناس عن الإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - .

والمعنى : وقل - أيها الرسول الكريم - إني أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين ...

وقد فصل الإمام الآلوسي القول عند تفسيره لهاتين الآيتين فقال ما ملخصه: قوله - تعالى - «كما أنزلنا على المقتسمين ..» متعلق بقوله - تعالى - «ولقد آتيناك سبعا ...» على أن يكون في موضع نصب نعتا لمصدر من آتينا محذوف أي : آتيناك سبعا من المثاني إيتاء كما أنزلنا ، وهو في معنى : أنزلنا عليك ذلك إنزالا كإنزالنا على أهل الكتاب «الذين جعلوا القرآن عضين» أي قسموه إلى حق وباطل ...

وقيل : هو متعلق بقوله - تعالى - : «وقل إني أنا النذير المبين» ... وجوز أن يراد بالمقتسمين جماعة من قريش ... أرسلهم الوليد بن المغيرة ، أيام موسم الحج ، ليقفوا على مداخل طرق مكة ، لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانقسموا على هاتيك المداخل، يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج فإنه ساحر ...

أي : وقل إني أنا النذير عذابا مثل العذاب الذي أنزلناه على المقتسمين .

وقيل المراد بالمقتسمين ، الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا -أي يقتلوه ليلا - فأهلكهم الله ...

ثم قال - رحمه الله - : والأقرب من الأقوال المذكورة أن قوله «كما أنزلنا ..» متعلق بقوله - تعالى - «ولقد آتيناك سبعا ...» وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين ، وأن الموصول مع صلته ، صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ...

والمعنى : لقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، إيتاء مماثلا لإنزال الكتابين على أهلهما ...»[1] .

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ج ١٤ ص ٧٤ وما بعدها .

ويبدو لنا أن من الأفضل أن يكون المراد بالمقتسمين ، ما يشمل أهل الكتابين وغيرهم من المشركين المتحالفين على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم - كما قال ابن كثير - وقد ذهب إلى ذلك الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه الله - بعد سرده للأقوال فى ذلك ما ملخصه : « والصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال : إن الله - تعالى - أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يعلم قومه الذين عضوا القرآن ففرقوه ، أنه نذير لهم من سخط الله وعقوبته ، أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين من قبلهم ومنهم ...

وجائز أن يكون عنى بالمقتسمين : أهل الكتابين .. وجائز أن يكون عنى بذلك : المشركون من قريش ، لأنهم اقتسموا القرآن ، فسماه بعضهم شعرا ، وسماه بعضهم كهانة ...

وجائز أن يكون عنى به الفريقان... وممكن أن يكون عنى به المقتسمون على صالح من قومه . لأنه ليس فى التنزيل ولا فى سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا فى فطرة العقل ، ما يدل على أنه عنى به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين ، وإذا فكل من اقتسم كتابا لله بتكذيب بعض وتصديق بعض ، كان داخلا فى هذا التهديد والوعيد .... »(1) .

ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والوعيد فقال : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » .

والفاء هنا متفرعة على ما سبق تأكيده فى قوله « وإن الساعة لآتية ... » إذ فى هذا اليوم يكون سؤالهم .

والواو للقسم ، أى : فوحق ربك - أيها الرسول الكريم - الذى خلقك

---

(1) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٣ .

فسواك فمدلك ، لنسألن هؤلاء المكذبين جميعا ، سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت ، عما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال قبيحة ، وعما كانوا يقولونه من أقوال فاسدة ، ثم لننزلن بهم جميعا العقوبة المناسبة لهم .

فالمقصود من هذه الآية الكريمة زيادة التسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — وتأكيد التهديد للمشركين .

ثم أمر — سبحانه — رسوله — صلى الله عليه وسلم — بأن يمضى فى طريقه ، وأن يجهر بدعوته وأن يعرض عن المشركين ، فقد كفاه — سبحانه — شرهم فقال — تعالى — : فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين .

إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون .

وقوله « فاصدع ... » من الصدع بمعنى الإظهار والاعلان . ومنه قولهم : انصدع الصبح ، إذا ظهر بعد ظلام الليل والصديع الفجر لانصداعه أى ظهوره . ويقال : صدع فلان بحجته ، إذا تكلم بها جهارا .

أى : فاجهر — أيها الرسول الكريم — بدعوتك ، وبلغ ما أمرناك بتبليغه علانية ، وأعرض عن سفاهات المشركين وسوء أدبهم .

قال عبد الله بن مسعود : مازال النبى — صلى الله عليه وسلم — مستخفيا بدعوته حتى نزلت هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه وقوله « إنا كفيناك المستهزئين » تعليل للأمر بالجهر بالدعوة ، بعد أن مكث — صلى الله عليه وسلم — يدعو الناس إلى الاسلام سرا ثلاث سنين أو أكثر .

وقوله « كفيناك ... » من الكفاية . تقول : كفيت فلانا المؤنة إذا توليتها عنه ، ولم تحوجه إليها . وتقول : كفيتك عدوك أى : كفيتك بأسه وشره .

والمراد بالمستهزئين : أكابر المشركين فى الكفر والعداوة والاستهزاء بالرسول — صلى الله عليه وسلم —

أى : إنا كفيناك الانتقام من المستهزئين بك وبدعوتك ، وأرحناك منهم ، بإهلاكهم وذكر بعضهم أن المراد بهم خمسة من كبرائهم ، وهم : الوليد ابن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عيطل ، والعاص بن وائل : وقد أهلكهم الله جميعا بمكة ، وكان هلاكهم العجيب من أهم الصوارف لأتباعهم عن الاستهزاء بالنبى — صلى الله عليه وسلم —

قال الامام الرازى : واعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين ، وفى أسمائهم ، وفى كيفية طريق إستهزائهم ، ولا حاجة إلى شىء منها .

والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسه ، لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة ، مع مثل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى علو قدره ، وعظم منصبه ، ودل القرآن على أن الله — تعالى — أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم »[1] .

ثم بين — سبحانه — أن هؤلاء المستهزئين قد أضافوا إلى ذلك الشرك والكفر فقال : « والذين يجعلون مع الله إلها آخر » فى عباداتهم وفى عقيدتهم ، « فسوف يعلمون » ما يترتب على ذلك فى الآخرة من عذاب شديد لهم ، بعد أن أهلكناهم فى الدنيا وقطعنا دابرهم .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بتسلية أخرى له — صلى الله عليه وسلم — ، وبإرشاده إلى ما يزيل همه . ويشرح صدره ، فقال — تعالى — : ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

وضيق الصدر : كناية عن كدر النفس ، وتعرضها للهموم والأحزان .

أى : ولقد نعلم — أيها الرسول الكريم — أن أقوال المشركين الباطلة فيك وفيما جئت به من عندنا ، تحزن نفسك ، وتكدر خاطرك .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٢١٥

وقال - سبحانه - « ولقد نعلم . . » بلام القسم وحرف التحقيق ، لتأكيد الخبر ، وإظهار مزيد الاهتمام والعناية بالخبر عنـــه - صلى الله عليه وسلم - فى الحال والاستقبال .

والفاء فى قوله « فسبح بحمد ربك . . . » واقعة فى جواب شرط .

والتسبيح لله - تعالى - معناه : تنزيهه - عز وجل - عن كل مالا يليق به .

والتحميد له - تعالى - معناه : الثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال .

أى : إن ضاق صدرك — أيها الرسول الكريم - بسبب أقوال المشركين القبيحة ، فافزع إلينا بالتسبيح والتحميد ، بأن تكثر من قول سبحان الله ، والحمد لله .

قال بعض العلماء : فهذه الجملة الكريمة قد اشتملت على الثناء على الله بكل كمال ؛ لأن الكمال يكون بأمرين : أحدهما : التخلى عن الرذائل ، والتنزه عما لا يليق ، هذا معنى التسبيح .

والثانى : التحلى بالفضائل ، والاتصاف بصفات الكمال ، وهذا معنى الحمد .

فتم الثناء بكل كمال . ولأجل هذا المعنى ثبت فى الصحيح عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ؛ سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم . . . »(١)

والمراد بالسجود فى قوله - تعالى - « وكن من الساجدين » الصلاة . وعبر عنها بذلك من باب التعبير بالجزء عن الكل ، لأهمية هذا الجزء وفضله ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن ترتيب الأمر بالتسبيح والتحميد

---

(١) تفسير أضواء البيان للشيخ الأمين الشنقيطى ج ٣ ص ٢٠٢ .

والصلاة على ضيق الصدر ، دليل على أن هذه العبادات ، بسببها يزول المكروه بإذنه - تعالى - ، وتنقشع الهموم ...

ولذا كان - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من حديث نعيم بن عمار - رضي الله عنه - أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : قال الله - تعالى - : يا بن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار ، أكفك آخره » .

فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله - تعالى - بأنواع الطاعات من صلاة وتسبيح وتحميد وغير ذلك من ألوان العبادات .

والمراد باليقين : الموت ، سمي بذلك لأنه أمر متقين لحوقه بكل مخلوق :

أي : ودم - أيها الرسول الكريم - على عبادة ربك وطاعته مادمت حيا ، حتى يأتيك الموت الذي لا مفر من مجيئه في الوقت الذي يريده الله - تعالى - .

ومما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت قوله - تعالى - حكاية عن المجرمين : « قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين » أي : الموت .

ويدل على ذلك أيضا ما رواه البخاري عن أم العلاء أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت : قلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : وما يدريك أن الله قد أكرمه ... أما هو فقد جاءه اليقين - أي الموت - وإني لأرجو له الخير »[1] .

قال الإمام ابن كثير : ويستدل بهذه الآية الكريمة ، على أن العبادة

---

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ٩١ : كتاب الجنائز ، باب الدخول على الميت ... »

كالصلاة ونحوها ، واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتا ، فيصلى بحسب حاله، كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

ويستدل بها أيضا على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة، سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل .... »(٢) .

وبعد : فهذه سورة الحجر، وهذا تفسير لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد طنطاوى

المدينة المنورة فى ٦ من جمادى الثانيه سنه ١٤٠٢

---

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٣ .

فهرس إجمالى لتفسير سورة الحجر

رقم الايداع ٤٠١٠١ / ١٩٨٤